الكتاب الثاني

نهاية دولة الإسلام فى الأندلس

٨٧١ — ٨٩٧ هـ : ١٤٦٦ — ١٤٩٢ م

obeikandl.com

الفصل الأول

الأندلس على شفا المنحدر

انحلال مملكة غرناطة . ابن الخطيب وشعوره بمصير الأندلس . تشاؤم ابن خلدون . مملكة غرناطة ، وعون بنى مرين . تربص أسبانيا النصرانية . ولاية السلطان أبى الحسن . استرداده لبعض الحصون . خروج اخيه ابى عبد الله الزغل عليه . عقد الصلح بينهما . اتحاد اسبانيا النصرانية . فرديناند يطالب باداء الجزية . أبو الحسن يغزو أرض النصارى . استيلاؤه على قلعة الصخرة . طغيان أبى الحسن . الأميرة عائشة ملكة غرناطة . زواج السلطان أبى الحسن بثريا النصرانية . الزواج المختلط وأثره فى انحلال المجتمع الأندلسى . التنافس بين الملكة الشرعية وثريا . اعتقال الأميرة عائشة وولديها . انقسام الزعماء والقادة . استئثار ثريا بالسلطة . سعيها لسحق أبى عبد الله ولد عائشة . فرار الأميرة عائشة وولديها . ظهور دعوتهم فى وادى آش . الحرب بين المسلمين والنصارى . مهاجمة النصارى لمدينة الحامة واستيلاؤهم عليها . فشل أبى الحسن فى انقاذها . مهاجمة فرديناند لمدينة لوشة . انجادها وهزيمة النصارى . الثورة فى غرناطة . فرار أبى الحسن الى مالقة . جلوس ولده أبى عبد الله على العرش . مسير النصارى الى مالقة . هزيمتهم الفادحة . خروج أبى عبد الله الى الغزو . هزيمة المسلمين عند حصن اللسانة . أسر النصارى لأبى عبد الله . الاضطراب فى غرناطة . نزول أبى الحسن عن العرش لأخيه أبى عبد الله الزغل . السعى الى افتداء أبى عبد الله . اتفاق الأميرة عائشة مع فرديناند على اطلاق سراحه . ضعف أبى عبد الله ومشاريع فرديناند فى استغلاله . زحف النصارى على رنده واستيلاؤهم عليها . هزيمتهم أمام حصن ماكلين . الحرب الأهلية فى غرناطة . اطلاق سراح أبى عبد الله وتعهده بالطاعة لملك قشتالة . ظهور فى الانحاء الشرقية . مهاجمة النصارى للوشه واستيلاؤهم عليها . سقوط الحصون الاسلامية فى يد النصارى . الانفاط التى استعملت فى حرب غرناطة . أصلها وتطورها ، المدافع البدائية . أثر هذا السلاح فى هزيمة المسلمين . الحرب الأهلية بين أبى عبد الله وعمه الزغل . امداد فرديناند لأبى عبد الله . مسير فرديناند الى بلش مالقة . اسراع الزغل الى انجادها . سقوطها فى يد لنصارى . تأييد غرناطة لأبى عبد الله . ارتداد الزغل الى وادى آش . انقسام مملكة غرناطة .

وهكذا كانت شمس الأندلس تؤذن بالغروب ، وكانت تغرب فى الواقع بخطى وئيدة ، ولكن مؤكدة .

ولم يك ثمة شك فى أن هذه المملكة الإسلامية الصغيرة ، التى يسودها الخلاف والتفرق ، وتعصف بوحدتها ومنعتها الحروب الداخلية ، كانت تنتحر ببطىء ، وأن هذه الأمة الأندلسية ، التى أخذت تنكمش فى مدنها وثغورها القليلة ، كانت تنظر إلى المستقبل بعين التوجس والجزع ، وأن هذه الحياة الباهرة الساطعة التى كانت تحياها بين آن وآخر ، كلما تربع على العرش أمير قوى رفيع الخلال ، لم تكن إلا سويعات النعماء الأخيرة فى حياة أمة عظيمة تالدة . وقد كان هذا الشعور يخالج رجالات الأندلس منذ بعيد ، حتى قبل أن تتفاقم الأمور ، وتغدو مملكة غرناطة ألعوبة فى يد بلاط قشتالة ، وكانوا يستشفون من وراء ذلك خطر الفناء المحقق . وكان ابن الخطيب وزير الأندلس ومفكرها الكبير حسبما قدمنا ، أشدهم شعوراً بذلك الخطر الداهم ، وقد استشعر به قبل وقوعه بأكثر من قرن ، فعكف يهيب بقومه وإخوانه المسلمين فيما وراء البحر ، ويستنفرهم إلى الجهاد . ومما يخاطبهم به قوله : « أيها الناس رحمكم الله ، إخوانكم المسلمون قد دهم العدو ساحتهم ، ورام الكفر استباحتهم ، وزحفت حراب الطواغيت عليهم ، ومد الصليب ذراعه إليهم ، وأيديكم بعزة الله أقوى ، وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى ، وهو دينكم فانصروه ، وجواركم القريب فلا تخفروه ، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه . الجهاد الجهاد ، فقد تحين ، الجهاد الجهاد ، قد قرر الشرع حقه وبين ، الله الله فى الإسلام ، الله الله فى أمة محمد عليه السلام ، الله الله فى المساجد العمورة بذكر الله ، الله الله فى وطن الجهاد فى سبيل الله ، فقد استغاث بكم الدين فأغيثوه ، قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه ، أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة أعانكم الله عند الشدائد ، جددوا عوائد الخير يصل الله لكم جميع العوائد . . . أدركوا رمق الدين قبل أن يفوت بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت . . . »[1].

ويشير ابن الخطيب فى إحدى رسائله إلى السلطان أبى سالم المرينى ملك المغرب

---

(١) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٦٤ ؛ وابن الخطيب يتوجه هنا بندائه إلى أهل العدوة وملوكهم من بنى مرين .

إلى ماتعانيه الأندلس من المحن والأخطار ، وينوه باتحاد الملوك النصارى على محاربتها والقضاء عليها فى قوله : « فاعلموا أننا فى هذه الأيام ندافع من العدو تياراً ، ونكابر بحراً زخاراً ، ونتوقع إلا أن وقى الله تعالى خطوباً كبارا ، ونمد اليد إلى الله تعالى انتصاراً ، ونلجأ إليه اضطراراً ، ونستمد دعاء المسلمين بكل قطر استعداداً به واستظهاراً » (١).

ثم يقول فى رسالة أخرى مشيراً إلى مايهدد الأندلس من جراء ذلك من خطر الفناء المحقق : « ولاشك عند عاقل أنكم إن انحلت عروة تأميلكم ، أو أعرضتم عن ذلك الوطن ، استولت عليه يد عدوه » (٢).

ويبدى المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون ، تشاؤمه وتوجسه ، من مصير الأندلس فى أكثر من موطن ، وهو الخبير بتقلبات الدول ومصايرها ، وكان قد زار غرناطة وأقام بها مدى حين ، ودرس أحوالها وشئونها (٣).

وقد رأينا فيما تقدم كيف كانت مملكة غرناطة ، جرياً منها على السياسة الأندلسية المأثورة منذ أيام المرابطين والموحدين ، تتجه كلما لاح لها شبح الخطر الداهم من عدوها القوى ، ببصرها إلى جارتها المسلمة القوية فيما وراء البحر ، أعنى دولة بنى مرين . وكانت صولة الإسلام فى الضفة الأخرى من البحر ، تروع اسبانيا النصرانية ، وترد عدوانها عن الأندلس بين آونة وأخرى . ولكن صريخ بنى الأحمر إلى ملوك العدوة ، لم يكن دائماً بعيداً عن التوجس والريب ، ولم يستجب بنو مرين دائماً إلى صريخ الأندلس المحتضرة ، وكانت لهم أحياناً مطامع ومشاريع فى الأندلس وقواعدها الجنوبية ، تزهد فى غوثهم ونصرتهم . وكانت اسبانيا النصرانية كلما آنست تصرم العلائق بين الدولتين الشقيقتين ، انقضت على الأندلس فاقتطعت منها أرضاً جديدة . ولما أشرفت دولة بنى مرين على الانهيار ، وشغلت عدوة المغرب بالفتن الداخلية ، خبا أمل الأمة الأندلسية ، فى تلقى الغوث والإمداد من تلك الناحية ، واضطرت مملكة غرناطة أن تعتمد فى الذود عن حياتها ، على قواها ومواردها المحدودة ،

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧١ .

(٢) أزهار الرياض ج ١ ص٦٦ .

(٣) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٨ ، و ج ٧ ص ٣٧٩ .

وعلى مايمكن أن تفيده من تطور الحوادث فى اسبانيا النصرانية . ولم تأت فاتحة النصف الأخير من القرن التاسع الهجرى ، حتى غدت غرناطة وقد انتزعت معظم أطرافها من الغرب والجنوب ، وأحاطت بها قوى النصرانية من كل صوب ، تدبر عدتها الأخيرة للقضاء عليها .

— ٢ —

لما توفى السلطان سعد بن اسماعيل النصرى فى ربيع سنة ٨٧١هـ (١٤٦٦م) خلفه فى الملك ولده الأكبر على أبو الحسن الملقب بالغالب بالله(١). ولكنه لم يستخلص الملك لنفسه إلا بعد نضال عنيف بينه وبين منافسيه ، وعلى رأسهم أخوه السيد أبو عبد الله محمد المعروف « بالزغل » . وكان أبو الحسن أميراً وافر الشجاعة والعزم ، يعشق الحرب والجهاد ، وكانت له أيام أبيه غزوات موفقة فى أرض النصارى . وما كاد أبو الحسن يستقر فى عرشه ، حتى أبدى همة فائقة فى تحصين المملكة ، وتنظيم شئونها ، وبث فيها روحاً جديدة من القوة والطمأنينة ، واستطاع أن يسترد عدة من الحصون والقواعد التى استولى عليها النصارى . وفى أوائل حكمه خرج عليه أخوه أبو عبد الله « الزغل » (٢) والى مالقة ، وكان يضارعه فى الشجاعة والجرأة وحب النضال . ولجأ الزغل إلى عون ملك قشتالة هنرى الرابع يستنصره على أخيه ، ولقيه فى محلته فى ظاهر أرشدونة ، سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٩ م) فوعده بالعون والتأييد . وبادر السلطان أبو الحسن من جانبه بالإغارة على أراضى قشتالة (١٤٧٠م) . ثم عاد فى العام التالى فغزاها مرة أخرى ، وانتزع من النصارى بعض المواقع التى استولوا عليها . وشغل أبو الحسن فى الأعوام الثلاثة التالية بمحاربة أخيه أبى عبد الله الزغل ، الثائر عليه . وكان النضال سجالا بينهما . وشغل أبو الحسن بذلك عن غزو أرض النصارى ، وشغل القشتاليون أنفسهم بما نشب بينهم من الخلاف الداخلى ، وذلك حتى وفاة ملكهم هنرى الرابع فى سنة ١٤٧٤ .

ولما تفاقم النزاع بين أبى الحسن وأخيه أبى عبد الله ، ولم يحسم بينهما السيف ،

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦٠٧ .

(٢) الزغل وزغل أعنى الشجاع أو الباسل والمصدر « زغلة » . وسنرى فيما بعد كيف ينطبق هذا المعنى على سيرة الزغل وصفاته أتم الانطباق . راجع دوزى Supp. aux Dict. arabes. V. II. p. 594

رأى الفريقان أن يعمدا إلى الصلح والتهادن . فعقدت الهدنة بين الأخوين على أن تحترم الحالة القائمة ، ويبقى أبو عبدالله على استقلاله بمالقة وأحوازها ، وعقدت فى نفس الوقت هدنة مؤقتة بين المسلمين والنصارى .

وفى هذه الآونة التى أخذت فيها عوامل التفرق تمزق أوصال المملكة الإسلامية الصغيرة ، كانت اسبانيا النصرانية تخطو خطوتها الأخيرة نحو الإتحاد النهائى ، وذلك باقتران فرديناند ولد يوحنا الثانى ملك أراجون بايزابيلا أخت هنرى الرابع ملك قشتالة ؛ ثم إعلانهما ملكين لقشتالة فى سنة ١٤٧٩ ، وتبوئ فرديناند بعد ذلك عرش أراجون حسبما فصلنا . وهكذا اتحدت المملكتان الاسبانيتان القديمتان بعد أحقاب طويلة من الخلاف والحروب الأهلية ، وأصبحت اسبانيا النصرانية قوة عظيمة موحدة ، وكان تفرقها من قبل يتيح للأندلس فترات من السلام والأمن ، ولكن الأندلس وقد صارت إلى ما صارت إليه من الإنحلال والضعف ، أضحت تواجه أعظم قوة واجهتها فى تاريخها .

وحاول السلطان أبو الحسن أن يجدد الهدنة مع القشتاليين ليتفرغ لأعمال التحصين والإنشاء ، فأرسل فى سنة ٨٨٣ هـ (١٤٧٨ م) إلى ملك قشتالة يطلب تجديدها . وكان فرديناند وإيزابيلا يقيمان فى إشبيليه فوافقا على ما طلبه أبو الحسن ، ولكن بشرط أن تعترف مملكة غرناطة بطاعتهما ، وأن تؤدى إلى قشتالة نفس الجزية التى كان يؤديها أبوه . وأرسلا بالفعل سفيراً إلى السلطان أبى الحسن يطالبه بعهد الطاعة وتأدية الجزية ، فرفض أبو الحسن طلب الملكين النصرانيين بإباء ، وأجاب باعلان الحرب على قشتالة ، وزحف تواً على قلعة « الصخرة » وهى قاعدة حصينة تقع على حدود الأندلس الغربية فى غربى مدينة رنده ، واستولى عليها عنوة ، وقتل حاميتها ، وسبى سكانها (ديسمبر سنة ١٤٨١ م) . وبالرغم مما أحرزه أبو الحسن من الظفر فى تلك المعركة الأولى ، فقد اعتبر بعض العقلاء تصرفه اعتداء لا مبرر له ، وتوجسوا شرا من عواقبه . ويروى أن فقيهاً شيخا صاح غداة هذا الانتصار ، وهو يغادر هو الإجتماع فى قصر الحمراء ، ويل لنا فلسوف تسقط أنقاض الصخرة فوق رؤوسنا ، ولم يبق لدولة الاسلام فى اسبانيا سوى أيام معدودات (١). على أن هذا الظفر المؤقت

(١) Condé: ibid; V. III. p. 343, 344.

كان له أعظم الأثر فى إحياء قوى الشعب المعنوية ، ولاح لاسبانيا النصرانية يومئذ أن الأندلس المحتضرة تكاد تبدأ حياة جديدة من القوة (١) . ولكن هذا البعث الخلب لم يطل أمده . ذلك لأن أبا الحسن لم يلبث أن ركن الدعة ، وأطلق العنان لأهوائه وملاذه ، وبذر حوله بذور السخط والغضب ، بما ارتكبه فى حق الأكابر والقادة من صنوف العسف والشدة ، وما أساء إلى شئون الدولة والرعية ، وما أغرق فيه من ضروب اللهو والعبث . وهكذا عادت عوامل الخلاف والتفرقة الخالدة ، تعمل عملها الهادم ، وتحدث آثارها الخطرة .

* * *

وكان أبو الحسن قد اقترن بالأميرة عائشة ابنة عمه السلطان أبى عبد الله الأيسر وهى التى تعرفها الرواية الإسلامية باسم « عائشة الحرة » . ويمثل اسم هذه الأميرة فى تاريخ المأساة الأندلسية ، كما تمثل فيها أسماء أخرى أكثر ذيوعاً وذكراً ، وفى مقدمتها اسم ولدها المنكود أبى عبد الله ، ولكن لعل اسماً بينها لايثير من الإعجاب والاحترام ، ومن الأسى والشجن ، قدر مايثير ذكر هذه الأميرة النبيلة الساحرة ، التى تذكرنا خلالها البديعة ، ومواقفها الباهرة ، وشجاعتها المثلى ابان الخطوب المدلهمة ، بما نقرأه فى أساطير البطولة القديمة من روائع السير والمواقف .

والواقع أن حياة عائشة الحرة ، تبدو لنا خلال الحوادث والخطوب ، كأنها صفحة من القصص المشجى ، أكثر مما تبدو كصفحة من التاريخ الحق ، وهـذا

---

(١) راجع كتاب « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » (ص ٣) ، وهو الرواية الاسلامية الوحيدة التى انتهت الينا عن حوادث سقوط غرناطة . وسيكون منـذ الآن مرجعنـا فى كثير من حوادث هذه الفترة . ويقع هـذا الـكتاب فى ست وخمسين صفحـة فقط ، وقد وضعه مؤلف مجهول لم يذكر اسمـه ، ولـكنه يذكر فى نهـايته أنه كتبه فى جمادى الآخرة سنة ٩٤٧ هـ أعنى بعد سقوط غرناطة بخمسين عاما فروايته معاصرة تقريباً . ويدل وصفه للحوادث على أنه ربما شهدها فتى ، أو لعله تلقى تفاصيلها من أفواه الشيخة الذين شاهدوها . والظاهر أن المؤلف من أشراف غرناطة الذين بقوا فيهـا وأرغمـوا على التنصر ، ولـكنهم بقوا مسلمين فى سرائرهم ، وأنه خشى أن يبوح باسمه لأنه يندب حظ الإسلام ، ويندد بغدر النصـارى وفظائعهم . وقد نشر المستشرق الألمانى م . ى . ميلر هـذا الـكتاب عن النسخة الخطية الوحيدة المحفوظـة بالاسكوريال (جوتنجن سنة ١٨٦٣) مقرونة بترجمة المانية تحت عنوان « أيام غرناطة الأخيرة » Die letzten Zeiten von Granada . ونقل المقرى فى نفح الطيب معظم ماورد فيه عن حوادث سقوط الأندلس .

اللون القصصى لايرجع فقط أى كونها أميرة أو امرأة ، تشترك فى تدبير الملك ، وتدبير الشئون والحوادث ، ولكن يرجع بالأخص إلى شخصيتها القوية . وإلى سمو روحها ورفيع مثلها ، وإلى جنانها الجرىء يواجه كل خطر ، ويسمو فوق كل خطب ومصاب .

كانت عائشة الحرة ملكة غرناطة فى ظل ملك يحتضر ، ومجد يشع بضوئه الأخير ليخبو ويغيض . وقد رزقت من زوجها الأمير أبى الحسن بولدين هما : أبو عبد الله محمد وأبو الحجاج يوسف . وكانت روح العزم والتفاؤل التى سرت فى بداية هذا العهد إلى غرناطة ، تذكى بقية من الأمل فى إنقاذ هذا الملك التالد . وكانت عائشة ترى من الطبيعى أن يؤول الملك إلى ولدها ، ولكن حدث بعد ذلك مايهدد هذا الأمل المشروع . ذلك أن الأمير أبا الحسن ركن فى أواخر أيامه إلى حياة الدعة كما أسلفنا ، واسترسل فى أهوائه وملاذه ، واقترن للمرة الثانية بفتاة نصرانية رائعة الحسن ، تعرفها الرواية الإسلامية باسم « ثريا » الرومية ، . وتقول الرواية الإسبانية إن ثريا هذه واسمها النصرانى إيزابيلا ، وتعرفها الرواية أيضاً باسم « زريدة » ، كانت ابنة عظيم من عظماء اسبانيا وهو القائد « سانشو كنيس دى سوليس » وانها أخذت أسيرة فى بعض المعارك ، وهى صبية فتية ، وألحقت وصيفة بقصر الحمراء ، فاعتنقت الإسلام ، وتسمت باسم ثريا أو كوكب الصباح ، فهام بها الأمير أبو الحسن ، ولم يلبث أن تزوجها ، واصطفاها على زوجه الأميرة عائشة ، التى عرفت عندئذ « بالحرة » تمييزاً لها من الجارية الرومية ، أو إشادة بعفافها وطهرها (١) .

ولم يكن اقتران الأمير بفتاة نصرانية بدعة ، ولكنه تقليد قديم فى قصور الأندلس . وقد ولد بعض خلفاء الأندلس وأمرائها العظام من أمهات من النصارى ، مثل عبد الرحمن الناصر وحفيده هشام المؤيد ، وكذلك ولد بعض الأمراء من بنى نصر

---

(١) راجع Irving: Conquest of Granada حيث يورد أقوال الرواية الإسبانية عن شخصية ثريا (الفصل التاسع) . ويقول كوندى إن ثريا كانت ابنة حاكم مرطوس النصرانى Condé; ibid, (III. p. 342 ولكن الرواية العربية تكتفى بالقول بأن ثريا كانت جارية رومية (المقرى فى نفح الطيب ج ٢ص٦٠٨، وأخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر ص٦) ويتفق برسكوت مع الرواية العربية فيقول إن ثريا كانت جارية يونانية ، أى رومية . راجع History of Ferdinand and Isabella p.219

ملوك غرناطة من أمهات من النصارى مثل السلطان محمد بن اسماعيل النصرى (١) . ولم يكن الزواج المختلط نادراً فى المجتمع الأندلسى الرفيع ، ولاسيما منذ أيام الطوائف ، وكان كثير من الأكابر والأشراف يتزوجون بفتيات من النصارى سواء كن من السبايا أم من الأحرار . ولم يكن العكس نادراً أيضاً ، فمنذ توالى سقوط القواعد والثغور الأندلسية فى يد النصارى ، كثر الزواج بين المدجنين وبين النصارى ، وفقد المدجنون بمضى الزمن دينهم ولغتهم ، واندمجوا فى المجتمع النصرانى . ونرى بين زعماء الطوائف بعض أمراء يرجعون إلى أصل نصرانى ، مثل محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش ملك بلنسية ومرسية ، وقد كان يتكلم القشتالية ، ويلبس الثياب القشتالية ، ويتقلد السلاح القشتالى ، وكان معظم ضباطه وجنده من النصارى ، وكان الإسبان يعرفونه بالملك « دون لوبى » (٢) .

ولم يكن ثمة ريب فى خطورة الآثار الإجتماعية التى يحدثها مثل هذا الامتزاج الوثيق ، وقد كانت فيما بعد من أهم العوامل التى أدت إلى انحلال المجتمع الإسلامى ، وانحلال عصبية الدولة الإسلامية . كذلك لم يكن ثمة ريب فى أن هذه الآثار الهدامة كانت أعمق وقعاً وأشد خطراً وقت الإنحلال العام .

وكان الأمير أبو الحسن قد شاخ يومئذ وأثقلته السنون ، وغدا أداة سهلة فى يد زوجه الفتية الحسناء . وكانت ثريا فضلاً عن حسنها الرائع فتاة كثيرة الدهاء والأطماع ، وكان وجود هذه الأميرة الأجنبية فى قصر غرناطة ، واستئثارها بالسلطان والنفوذ فى هذه الظروف العصيبة ، التى تجوزها المملكة الإسلامية ، عاملا جديداً فى إذكاء عوامل الخصومة والتنافس الخطرة . وكانت ثريا فى الواقع تتطلع إلى أبعد من السيطرة على الملك الشيخ . ذلك أنها أنجبت من الأمير أبى الحسن كخصيمتها عائشة ولدين ، كانت ترجو أن يكون الملك لأكبرهما وهو السيد يحيى . وقد بذلت كل ما استطاعت من صنوف الدس والإغراء لإبعاد خصيمتها الأميرة عائشة عن كل نفوذ وحظوة ، وحرمان ولديها محمد ويوسف من كل حق فى الملك ؛ وكان أكبرهما محمد ولقبه أبو عبدالله ولى العهد المرشح للعرش ، وكان أشراف غرناطة يؤثرون ترشيح سليل

---

(١) الاحاطة ج ١ ص ٣٥٣ .

(٢) راجع الاحاطة ج ٢ ص ٨٢ ؛ وكذلك : Lea: History of the Inquisition in Spain V. I. p.49 & 50

بيت الملك ، على عقب الجارية النصرانية . ولكن ثريا لم تيأس ولم تفتر همتها . فما زالت بأبي الحسن حتى نزل عند تحريضها ورغبتها ، وأقصى عائشة وولديها عن كل عطف ورعاية ، ثم ضاعفت ثريا سعيها ودسها حتى أمر السلطان باعتقالهم . وزجت عائشة مع ولديها إلى برج قمارش . أمنع أبراج الحمراء . وشدد فى الحجر عليهم ، وعوملوا بمنتهى الشدة والقسوة .

فأثار هذا التصرف غضب كثير من الكبراء الذين يؤثرون الأميرة الشرعية وولديها بعطفهم وتأييدهم ، وكان نذير الاضطراب والخلاف فى المجتمع الغرناطى . وانقسم الزعماء والقادة إلى فريقين خصيمين ، فريق يؤيد الأميرة الشرعية وولديها ، وفريق يؤيد السلطان وحظيته . واستأثر الفريق الأخير بالنفوذ مدى حين ، واضطرمت الأهواء والشهوات والأحقاد ، واشتد السخط على أبى الحسن وحظيته ، التى أضحت سيدة غرناطة الحقيقية ، واستأثرت بكل سلطة ونفوذ . وذهبت ثريا فى طغيانها إلى أبعد حد فحرضت الملك الشيخ على إزهاق ولده أبى عبدالله عثرة آمالها . وكان المنجمون حسبما تقول الرواية قد تنبأوا له عند مولده بأنه سيرقى العرش ، ولكن سيكون آخر من يرقاه من ملوك المسلمين ، وسوف تسقط غرناطة على يديه ، وكانت ثريا ترتجف لهذه النبوءة وتحاول أن تدلل على بطلانها بصورة عملية ؛ ويقال إن أبا الحسن أذعن لمشيئة ثريا وتحريضها فقرر أن يبطش بولده السجين ، وأن يغالب بازهاقه طوالع النجوم وأقوال المنجمين .

وكانت الأميرة عائشة امرأة وافرة العزم والشجاعة ، فلم تستسلم إلى قدرها الجائر ، بل عمدت إلى الاتصال بعصبتها وأنصارها ، وفى مقدمتهم بنو سراج أقوى أسر غرناطة ، وأخذت تدبر معهم وسائل الفرار والمقاومة ؛ ولم يغفر السلطان أبوالحسن لبنى سراج هذا الموقف قط . ويقال إنه عمد فيما بعد إلى تدبير إهلاكهم فى إحدى أبهاء الحمراء . ولما وقفت الأميرة عائشة من أصدقائها على نية أبى الحسن قررت أن تبادر بالعمل ، وأن تغادر قصر الحمراء مع ولديها بأية وسيلة . وفى ليلة من ليالى جمادى الثانية سنة ٨٨٧هـ (١٤٨٢م) استطاعت الأميرة أن تفر مع ولديها محمد ويوسف بمعاونة بعض الأصدقاء المخلصين (١) . وتقدم إلينا الرواية عن هذا الفرار

(١) أخبار العصر ص ١٢ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦٠٩ .

صوراً شائقة فتقول إن بعض الخدم المخلصين ، كان ينتظر مع الجياد على مقربة من الحمراء على ضفة النهر مما يلى برج قمارش ، وإن الأميرة استعانت بأغطية الفراش على الهبوط من نوافذ البرج الشاهق فى جوف الليل (١) ، وانها هبطت بعد أن أدلت ولديها ، ثم اختفى الجميع تحت جنح الظلام .

وهكذا استطاعت هذه الأميرة الباسلة أن تفر من معتقلها فى إقدام وجرأة يخلقان بأبطال الرجال ؛ واختفى الفارون حينا حتى قويت دعوتهم وانضم إليهم كثير من آهل غرناطة ؛ وكان اسم عائشة ورفيع خلالها ، وقصة فرارها الجرىء ، تثير أيما عطف وإعجاب . وظهر ولدها الأمير الفتى محمد أبو عبدالله فى وادى آش حيث مجمع عصبته وأنصاره ، وكان السلطان أبو الحسن وقت فرار الأميرة وولديها بعيداً عن غرناطة ، يدافع النصارى عن أسوار لوشه ، وكانت الحوادث تسير بسرعة مؤذنة باضطرام عاصفة جديدة .

— ٣ —

وكان ملك قشتالة يرقب الحوادث فى مملكة غرناطة بمنتهى الاهتمام . فلما اضطرمت نار الحرب الأهلية بين المسلمين ، ولاحت الفرصة للغزو سانحة ، قرر بدء الحرب ضد غرناطة . وكان يضطرم سخطاً لاستيلاء المسلمين على قلعة الصخرة بالرغم من قيام الهدنة ، وعجزه عن استرداد هذه القاعدة الهامة ، فسير حملة قوية إلى الأندلس سارت منحرفة من جهة الغرب . ورأى القواد القشتاليون أن يبدأوا بمهاجمة ألحامة (الحمة) التى تقع فى قلب الأندلس جنوب غربى غرناطة ، وذلك لما بلغهم من ضعف وسائل الدفاع عنها ، ولأن الاستيلاء عليها يمكنهم من تهديد غرناطة ومالقة معاً . وكانت ألحامة مدينة غنية ولها شهرة قديمة بحماماتها الشهيرة التى كانت مجتمع ملوك غرناطة وأمرائها . ونجحت الخطة واستطاع النصارى مفاجأة ألحامة والاستيلاء على قلعتها تحت جنح الظلام ، ثم استولوا على المدينة بالرغم من مقاومة أهلها الباسلة ، وأمعنوا فى المسلمين قتلا وأسرا وسبيا (المحرم سنة ٨٨٧ — فبراير سنة ١٤٨٢) . وهرع السلطان أبو الحسن فى قواته لإنقاذ الحامة واستردادها ، وحاصرها بشدة ، ولكنه لم يستطع اقتحامها ، ولم يلبث أن اضطر إلى مغادرتها حينما

(١) راجع : Prescott: ibid. p. 219

علم أن ملك قشتالة يتقدم لإنجادها فى جيش قوى ضخم (١) . ولم تمض أشهر قلائل حتى زحف ملك قشتالة على مدينة لوشه الواقعة على نهر شنيل فى شمال ألحامة وعلى مقربة منها وحاصرها ، ودافعت عنها حاميتها أروع دفاع بقيادة قائدها الأمير الشيخ ، على العطار ، وكان رغم شيخوخته من أشجع وأبرع فرسان غرناطة فى ذلك العصر . وسار أبو الحسن فى قواته مسرعاً لإنجاد لوشه ، وانتهى الأمر بأن رُد النصارى بخسارة فادحة فى الرجال والعدد (جمادى الأولى ٨٨٧ — يوليه ١٤٨٢) . وكان مما استولى عليه المسلمون من النصارى ، بعض « الأنفاط » التى تستعمل لحصار المدن ، والتى سنتحدث عنها فيما بعد (٢) .

وما كاد أبو الحسن يعود إلى عاصمة ملكه حتى تجهم الجو من حوله . وكانت سياسته الداخلية قد أثارت حوله كثيراً من السخط ، بالرغم مما أحرز من نجاح فى مقاومة النصارى ، وكان معظم الشعب الغرناطى يعطف على الملكة الشرعية وولديها . وسرعان مانشبت الثورة فى غرناطة ، وغلبت دعوة الأمير الفتى أبى عبدالله ، ولم يستطع أبو الحسن وصحبه مواجهة العاصفة ؛ ففر الملك الشيخ إلى مالقة ، وكان بها أخوه الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد ، المعروف بالزغل أى الشجاع الباسل ، يدفع عنها جيشاً جراراً سيره ملك قشتالة لافتتاحها . وجلس أبو عبدالله محمد (٣) مكان أبيه على عرش غرناطة (أواخر سنة ٨٨٧هـ) . وأطاعته غرناطة ووادى آش وأعمالها . وبقيت مالقة وغرب الأندلس على طاعة أبيه ، وكان أبو عبد الله يومئذ فتى فى نحو الخامسة والعشرين .

* * *

وكان فرديناند الخامس عقب هزيمته أمام لوشه ، قد سير جنده إلى مالقة لافتتاحها . وكانت مالقة أعظم الثغور الباقية بيد المسلمين . وكان النصارى يتوقون للاستيلاء عليها لإتمام تطويق الأندلس من الجنوب ، ولكن المسلمين كانوا على أتم أهبة للدفاع عن هذا الثغر المنيع . واشتبك المسلمون والنصارى فى عدة مواقع دموية

---

(١) أخبار العصر ص٦ و ٩ ؛ وكذلك : Prescott: p. 206-210

(٢) أخبار العصر ص ١١ .

(٣) يعرف السلطان أبو عبد الله فى الرواية القشتالية والافرنجية بوجه عام باسم Boabdil محرفاً عن « أبى عبد الله » .

فيما بين مالقة وبلش (Velez) ورُد فيها النصارى بخسارة فادحة . وانتهى الأمر بأن هُزم النصارى فى ظاهر مالقة هزيمة ساحقة ، وقتل وأسر منهم عدة آلاف بينهم كثير من الزعماء والأكابر (صفر ٨٨٨ — مارس ١٤٨٣) . وتعرف هذه الموقعة « بالشرقية » لوقوعها فى المنطقة المسماة بذلك فى شرقى مالقة . وكان منظم هـــذا الدفاع الباهر الأمير أبو عبد الله « الزغل » . وكان لانتصار المسلمين أعظم وقـــع فى جنبات الأندلس ، فانتعشت الآمال وسرت الحماسة فى كل مكان ، وهبت على غرناطة ريح جديدة من الإستبشار والنصر ، واعتزم ملكها الفتى أن يحذو حذو عمه الباسل فى الجهاد والغزو ، وأن ينتهز فرصة اضطراب النصارى عقب الهزيمة. فخرج فى قواته فى شهر ربيع الأول سنة ٨٨٨ (ابريل سنة ١٤٨٣) متجهاً نحو قرطبة ، شمال غربى غرناطة ، واجتاح فى طريقه عدداً من الحصون والضياع ، وهزم النصارى فى عدة معارك محلية . ثم ارتد مثقلا بالغنائم فى طريق العودة ، فأدركه النصارى فى ظاهر قلعة اللسانة (Lucena) وكان يزمع حصارها . ونشبت بين الجيشين معركة هائلة ارتد فيها المسلمون إلى ضفاف نهر شنيل ، وقتل وأسر كثير من قادتهم وفرسانهم ، وكان بين الأسرى السلطان أبو عبدالله محمد نفسه ، عرفه الجند النصارى بين الأسرى أو عرفهم بنفسه خشية الاعتداء عليه ، فأخذوه إلى قائدهم الكونت كابرا (قبره) فاستقبله بحفاوة وأدب ، وأنزله باحدى الحصون الغربية تحت رقابة حرس قوى . وأخطر فى الحال ملكى قشتالة بالنبأ السعيد ، وعاد المسلمون إلى غرناطة دون ملكهم ، وقد مزقتهم الهزيمة وفتت فى عزائمهم ، فارتاعت العاصمة لهـــذه النكبة واضطرب الشعب ، وساد الوجوم قصر الحمراء ، وسرى الحزن والأسى إلى حرم الأمير وقرابته ، ولم يحتفظ فيهم بهدوئه وسكينته سوى أمه عائشة . وتذكر لنا الرواية أن عائشة حينما بكت أمامها مريمة زوج ولدها الفتية الحسناء وابنة الأمير على العطار بطل لوشه ، عنفتها قائلة : « إن الدموع لاتليق بابنة مجاهد ولا بزوج ملك ، وإن الخطر لأشد على ملك يمتنع بقصره منه عليه حين يأوى إلى خيمته ، وإنه لواجب على زوجك أن يشترى سلام عرشه بمخاطر الميدان » (١) .

---

(١) وردت معظم هذه الأقوال والروايات الشجية التى نشير إليها من آن لآخر خلال حوادث سقوط غرناطة، فى الرواية الاسبانية المعاصرة التى دونها القس Antonio Agapida والتى تحفظ حتى=

واجتمع الكبراء والقادة وقرروا استدعاء أبي الحسن السلطان المخلوع ليجلس على العرش مكان ولده الأسير . ولكن أبا الحسن كان قد هدمه الإعياء والمرض وفقد بصره ، ولم يستطع أن يضطلع بأعباء الحكم طويلا ، فنزل عن العرش لأخيه محمد أبي عبدالله « الزغل » حاكم مالقة ، وارتد إلى المنكب فأقام بها حينا حتى توفى (٨٩٠هـ — ١٤٨٥م) . وجلس « الزغل » على العرش يدبر شئون المملكة ، وينظم الدفاع عن أطرافها . أما السلطان أبو عبدالله محمد بن أبي الحسن فلبث يرسف فى أسره عند النصارى . وأدرك ملك قشتالة فى الحال ما للأمير الأسير من الأهمية ، وأخذ يدبر أفضل الوسائل للاستعانة به فى تحقيق مآربه فى مملكة غرناطة . وبذل أبو الحسن حين عوده إلى العرش جهده لافتداء ولده ، لا بباعث الحب له والشفقة عليه ، ولكن لكى يحصل فى يده ويأمن شره ومنافسته ، وعرض على فرديناند نظير تسليمه أن يدفع فدية كبيرة ، وأن يطلق عدداً من أكابر النصارى المأسورين عنده ، فأبى فرديناند وآثر أن يحتفظ بالأسير إلى حين . وبذلت الأميرة عائشة من جهة أخرى مجهوداً آخر لإنقاذ ولدها بمؤازرة الحزب الذى يناصره ، واقترحت على ملك قشتالة معاهـــدة خلاصتها أن يتولى أبو عبد الله الملك فى طاعـة ملك قشتالة ، وأن يؤدى له جزية سنوية ، وأن يطلق كل عام عدداً من أسرى النصارى ، وأن يدفع مقابل إطلاقه فدية كبيرة ، وأن يفرج فى الحال عن أربعمائة من أسرى النصارى يختارهم ملكهم ، وأن يقدم المعاونة العسكرية لملك قشتالة كلما طلبت إليه ، وأن يقدم ابنه الوحيـــد كفالة مع عدد من أبناء الأسر الكبيرة (١) . ومع أن عقد هذه المعاهدة كان خطوة كبيرة فى سبيل القضاء على مملكة غرناطة ، فان فرديناند رأى قبل عقدها أن يستغل أسر ملك غرناطة ، وأن يستعين به على تنفيذ برنامجه الحربى . وكان أبو عبدالله أميراً ضعيف العزم والإرادة ، قليل الحزم والخبرة ، ولم يكن يتمتع بشئ من تلك الخلال

= اليوم فى مكتبة الاسكوريال . وقد اتخذ الكاتب الأمريكى واشنطون ايرفنج رواية القس أجابيدا أساساً لكتابه عن فتح غرناطة : A Chronicle of the Conquest of Granada وهو الذى نشير إليه فى مواطن عديدة . ومانذكره من أقوال « الرواية » فى هذه المواطن لايدخل حتماً فى حيز التاريخ وإنما يرجع فى الغالب إلى أقوال الرواية المتناقلة وغير المحققة ، ومن ثم كان حرصـنا على أن ننسب إليهـا تنقله منهـا .

(١) Prescott: ibid; p. 234; Irving: Conquest of Granada. Ch. XIX

الباهرة التى امتاز بها أسلافه وأجداده العظام من بنى الأحمر . وكان الملك والحكم غايته يبتغيها بأى الأثمان والوسائل . وقد ألفى ملك قشتالة القوى فى ذلك الأمير الضعيف الطموح ، أداة صالحة يوجهها كيفما شاء ، فاتخذه وسيلة لبث دعوته بين أنصاره ومؤيديه فى غرناطة وغيرها ، وليقنع المسلمين بأن الصلح مع ملك قشتالة خير وأبقى . وسير ملك قشتالة فى نفس الوقت قواته فى أنحاء مملكة غرناطة لكى تنتزع أثناء الاضطراب العام ، كل مايمكن انتزاعه من القواعد والحصون الإسلامية. وزحف القشتاليون على مدينة رندة فى قاصية غربى الأندلس وهاجموها ، وضربوها بالأنفاط حتى هدمت أسوارها ، وكانت حاميتها بقيادة حامد الثغرى زعيم غمارة ، ولم يستطع أهل رندة أن يثبتوا طويلا لعدم استعدادها للدفاع ، ولبعدهم عن العاصمة ، ويأسهم من تلقى الأمداد السريعة ، فطلبوا الأمان ، وغادروا المدينة بأمتعتهم ؛ واستولى القشتاليون على رندة فى جمادى الأولى سنة ٨٩٠هـ (ابريل سنة ١٤٨٥) . ثم استولوا بعد ذلك على سائر الأماكن والحصون الواقعة فى تلك المنطقة ، وبذلك أصبحوا يهددون ثغر مالقة من الغرب (١) . وحاول القشتاليون بعد ذلك مهاجمة حصن مكلين على مقربة من غرناطة ، وكان به الأمير أبو عبدالله الزغل فى قوة من الغرناطيين ليصلح أسواره ويتم تحصينه ، ونشبت بين الفريقين معركة دموية رد فيها النصارى بخسائر فادحة ، وعاد الأمير وجنده إلى غرناطة فرحين مستبشرين (٢) .

ولكن كان من سوء الطالع أن نشبت فى تلك الأثناء فى غرناطة حرب أهلية جديدة لم تكن بعيدة عن وحى أبى عبدالله وحزبه ، وقام حى البيازين (ربض البيازين) وهو ضاحية غرناطة الشمالية بدعوته . وشغل ملك غرناطة (أبو عبدالله الزغل) باخماد الثورة عن مقاتلة النصارى . وفى نفس هذه الآونة العصيبة أطلق فرديناند سراح أبى عبدالله بعد أن ارتضى عقد المعاهدة التى عرضت عليه مع تعديل يسير فى نصوصها ، وبعد لقاء تم بين الملكين فى قرطبة أعلن فيه أبو عبدالله خضوعه وطاعته لملك قشتالة ، واتفق أن تكون الهدنة لعامين ، وأن تطبق فى جميع الأنحاء التى تدين بالطاعة لأبى عبدالله . وظهر أبو عبدالله يبث دعوته فى الأنحاء الشرقية ،

---

(١) أخبار العصر ص ١٥ .

(٢) أخبار العصر ص ١٧ .

والحرب الأهلية قائمة فى غرناطة وذلك فى أوائل سنة ٨٩١هـ (١٤٨٦م) و بدأت المفاوضة بينه و بين عمه أبى عبدالله الزغل (ملك غرناطة) فى الصلح . ولكن حدث فى أثناء ذلك أن هاجم النصارى مدينة لوشة للمرة الثانية وشددوا الحصار عليها وسلطوا على أسوارها العدد و« الأنفاط » . وكان يدافع عنها الأمير محمد بن على مع نخبة من أنجاد الفرسان . ولكن بسالة المسلمين لم تغن شيئاً أمام القوة القاهرة ، و فتك الأنفاط والعدد الثقيلة ، فاضطروا إلى التسليم ، واستولى النصارى على لوشة فى أواخر جمادى الأولى سنة ٨٩١هـ (مايو ١٤٨٦) واعتقلوا قائدها محمد بن على واخوته . وكان موقف السلطان أبى عبد الله أثناء هذه الحوادث مريباً . وتقول الرواية الإسبانية إنه اشترك مع بعض قواته فى الدفاع عن لوشة ، وإنه جرح أثناء ذلك (١) . ولكنا لم نعثر على مايؤيد ذلك فى الرواية الإسلامية . وكان أبو عبد الله يبذل جل جهده للدعوة إلى نفسه ، وإلى مقاومة عمه و نزعه عن العرش . وكان يمزج الدعوة لنفسه بالدعوة لملك قشتالة ، ويشيد بمزايا الصلح المعقود معه . ولم يكن خافياً أنه يستظل بمظاهرة النصارى وتأييدهم ، وأنه غدا آلة فى يد ملك قشتالة يعمل بوحيه وتوجيهه .

ولم يغفل فرديناند تلك الفرصة الذهبية لانتزاع مايمكن انتزاعه من أراضى مملكة غرناطة . فبينما الحرب الأهلية تضطرم فى العاصمة وحولها ، إذ سار النصارى إلى حصن البورة على مقربة من مالقة وحاصروه وضربوه « بالأنفاط » حتى اضطروا أهله إلى التسليم والخروج عنه ، ثم ساروا إلى حصن مكلين وهاجموه ونشبت بينهم وبين المدافعين عنه معركة عنيفة انتهت بتحطيم أسواره بفعل « الأنفاط » واستيلائهم عليه ، وخروج أهله عنه إلى غرناطة . ثم استولى النصارى بعد ذلك على حصن قلنبيرة بالأمان ، إذ رأى أهله مانزل بغيرهم ففضلوا التسليم دون قتال ، واستولوا بعده على سلسلة أخرى من القلاع والحصون التى تحمى مشارف غرناطة ، وأصلحوها وشحنوها بالرجال والمؤن ، لتؤدى دورها فيما بعد من التضييق على العاصمة وتهديدها (٢) .

وهنا نقف قليلا لنتساءل عن حقيقة هذه « الأنفاط » التى توالى ذكرها

---

(١) راجع : Irving: ibid; Ch. XXXIV

(٢) أخبار العصر ص ٣٢ .

فى سير هـذه المعارك ، التى اضطرمت بالأخص فى لوشة وفى رندة وفى الحصون المجاورة ، والتى كانت فيما يبدو عمدة النصارى فى التفوق على المسلمين ، فى تحطيم هذه الحصون القوية . ولقد أشارت الرواية الإسلامية عن سقوط غرناطة ، وهى رواية صاحب « أخبار العصر » التى كتبها بعد وقوع هذه الأحداث بنحو نصف قرن فقط ، إلى تلك « الأنفاط » فى عدة مواضع ثم وصفها لنا فيما يأتى :

« وكان له (أى لملك قشتالة) أنفاط يرمى بها صخور من نار ، فتصعد فى الهواء ، وتنزل على الموضع ، وهى تشتعل ناراً ، فتهلك كل من نزلت عليه وتحرقه ، فكان تلك من جملة ما كان يخذل فى أهل المواضع التى كان ينزل بها » (١) .

ونحن نعرف أن مسلمى المشرق كانوا منذ أيام الحروب الصليبية ، يحذقون استعمال الرمى بالنار والأنفاط ، وأن هذه النار كانت ترمى من آلات قاذفة تعرف بالحراقات على حصون العدو ومعسكراته وسفنه فى البحر فتفتك بها . وقد لعبت هذه النار دوراً هاماً فى الحروب الصليبية ، وألفت فيها مصر سلاحاً منيعاً لرد عدوان الصليبيين وتمزيق حملاتهم . والظاهر أن هذا السلاح الذى استأثر به المسلمون مدى حين فى المشرق ، قد عرفه مسلمو إفريقية والأندلس منذ منتصف القرن السابع الهجرى ، واستعملوه فى محاربة أعدائهم نصارى اسبانيا . ففى حصار لبلة (٦٥٥هـ — ١٢٥٧م) استعمل الموحدون لدفع جيوش الفونسو العاشر ملك قشتالة ، آلات تقذف حجارة ومواد ملتهبة يصحبها دوى كالرعد . وقد كان استعمال هذه النار أو الأنفاط الفتاكة يتطور بلا ريب مع العصور . ومنذ منتصف القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) نرى مسلمى الأندلس يستعملون لمقاتلة النصارى آلات تقذف اللهب والحجارة ، ويصحبها دوى مخيف (٢) . وظهرت براعة الأندلسيين فى استعمال هذه الآلات فى عدة مواقع . ففى حصار بياسه فى سنة ٧٢٤هـ (١٣٢٤م) فى عهد السلطان أبى الوليد اسماعيل ، أطلق المسلمون على المدينة الحديد والنار من آلات قاذفة تشبه المدافع ، واستعملت مثل هـذه الآلات فى موقعة وادى لكه (ريو سليتو) سنة ١٣٤٠م (٧٤٠هـ) وفى الدفاع عن الجزيرة سنة ١٣٤٢م(٧٤٢هـ)

---

(١) أخبار العصر ص ٢٢ .

(٢) راجع كتابى « مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام » ص ١٠٥ .

وذلك فى عصر السلطان أبى الحجاج يوسف . والظاهر من وصف هذه الآلات أنها كانت نوعاً من المدافع الساذجة التى تحشى بالحديد والحجارة وبعض المواد الملتهبة التى كانت فيما مضى عماد الحراقات أو الأنفاط الشرقية . وليس بعيداً أن يكون مسلمو الأندلس قد وفقوا فى هذا العصر أيضاً إلى العثور على سر البارود ، قبل أن يقف على سره القس الألمانى برتولد شفارتز فى منتصف القرن الرابع عشر . ومن المرجح أن النصارى الإسبان قد نقلوا سر الأنفاط عن مسلمى الأندلس ، وحذقوا فى استعمالها مع الزمن . ولما غلب الضعف على مملكة غرناطة تضاءلت أهباتها الدفاعية ونقصت مواردها فى السلاح والذخيرة ، خصوصاً بعد أن فقدت معظم قواعدها الصناعية . بيد أنه من المحقق أن المسلمين كانوا يستعملون الأنفاط أيضاً فى محاربة أعدائهم وإن يك ذلك بنسبة صغيرة تتفق مع ضآلة مواردهم . أما القشتاليون فقد كانت لديهم « الأنفاط » بكثرة ، وكانت السلاح المفضل فى مهاجمة القواعد والحصون الإسلامية . وهناك أيضاً ما يدل على أن هذه الأنفاط التى كان يستعملها القشتاليون لم تكن سوى المدفع فى صورته البدائية ، فالرواية الغربية تحدثنا عن اهتمام ملك قشتالة بصنع «المدافع» لمحاربة المسلمين ، وتقول لنا إن هذه المدافع كانت تصنع فى مدينة وشقه ، وان كميات عظيمة من القنابل الخاصة بها كانت تصنع فى سيبرا قسطنطينية (١) . وتحدثنا الرواية الإسلامية المعاصرة عن « البارود » وتقول لنا إن النصارى حينما نشبت الثورة فى ربض البيازين أمدوا فريقاً من الثوار « بالرجال والأنفاط والبارود » (٢) إذكاء منهم للفتنة بين المسلمين . وهكذا نرى أن الأنفاط التى تنوه الرواية الإسلامية بفتكها بحصون المسلمين وصفوفهم فى معارك غرناطة ، إنما هى المدافع بذاتها ، وأن تفوق القشتاليين فى استعمال هذا السلاح ، كان له أعظم الأثر فى التعجيل باخضاع مملكة غرناطة والقضاء عليها .

ولنعد إلى قصة الحرب الأهلية فى غرناطة ، فقد ثار أهل البيازين كما قدمنا بتحريض من أبى عبدالله وأمه الأميرة عائشة ، والتف معظم الشعب الغرناطى حول

---

(١) Prescott: ibid p. 223

(٢) راجع أخبار العصر ص ٢٤ .

أميره أبي عبدالله الزغل ، واستمرت المعارك سجالا بين الفريقين مدى أشهر . وفي شوال سنة ٨٩١هـ (اكتوبر ١٤٨٦) عاد أبو عبد الله محمد من الأنحاء الشرقية ، وظهر فجأة في ربض البيازين ، واجتمع حوله أنصاره من الثوار ، وأمده فرديناند حليفه بالرجال والعدد والذخائر والمؤن ومنها الأنفاط كما قدمنا ، فزادت الفتنة اضطراماً . وشدد أبو عبدالله الزغل الضغط على أهل البيازين ، وبينما هو على وشك تمزيقهم وإبادتهم ، إذ بلغه أن ملك قشتالة قد سير قواته إلى مدينة بلش مالقة Velez ، وذلك في ربيع الثاني سنة ٨٩٢ هـ (مارس ١٤٨٧) (١) . وكان طبيعياً أن ينتهز فرديناند الخامس فرصة اشتغال المسلمين بفتنتهم القاضية . وكانت بلش حصن مالقة ، وسقوطها يعرض مالقة لأشد الأخطار . وأدرك مولاى الزغل في الحال أهمية بلش فهرع إليها في بعض قواته ، وترك البعض الآخر لقتال أبي عبدالله وأهل البيازين . ولكن إقدام الزغل وعزمه وشجاعته ، واستبسال أهل بلش في الدفاع عن مدينتهم لم تغن شيئاً ، وسقطت بلش في يد النصارى في جمادى الأولى سنة ٨٩٢ هـ (أبريل سنة ١٤٨٧) وعاد الزغل بجنده ميمماً صوب غرناطة . ولكنه علم أثناء مسيره أن غرناطة قامت أثناء غيابه بدعوة أبي عبد الله ، وأنه دخلها وتبوأ العرش مكانه (٥ جمادى الأولى) . فأيقن عبث المحاولة وارتد بصحبه إلى وادى آش ، وامتنع فيها بقواته ، وبذلك انقسمت مملكة غرناطة الصغيرة إلى شطرين يتربص كل منهما بالآخر : غرناطة وأعمالها ويحكمها أبو عبد الله محمد بن السلطان أبي الحسن ، ووادى آش وأعمالها ويحكمها عمه الأمير محمد بن سعد (أبو عبدالله الزغل). وتحقق بذلك ما كان يبتغيه ملك قشتالة ، من تمزيق البقية الباقية من دولة الإسلام بالأندلس ، تمهيداً للقضاء عليها .

---

(١) أخبار العصر ص ٢٢ — ٢٤ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٢ .

الفصل الثاني

بداية النهـــاية

ابو عبد الله محمد يرقى العرش للمرة الثانية . تمزق المملكة الاسلامية . خطط ملك قشتالة للقضاء عليها . زحف النصارى على مالقة وحصارها . سعى الزغل الى انقاذها . استغاثته بملوك الاسلام . بسالة المسلمين فى الدفاع عنها . شدة الحصار وأهواله . تسليمها للنصارى . نكث فرديناند بوعوده . فتك النصارى بأهلها . استغاثة الأندلس بمصر . تتبع مصر لحوادث الأندلس . صدى محنة الأندلس فى المشرق . رواية عن خطة مصر وتركيا لانقاذ الأندلس . سفارة الأندلس الى مصر . رواية ابن اياس عنها . مصر تلجأ الى الوسائل الدبلوماسية . سفارة مصر الى البابا وملك نابل وملكى اسبانيا . رد فرديناند وسفارته الى ملك مصر . أثر سقوط مالقة . استيلاء فرديناند على المنكب تسليم المريه للنصارى وشروط التسليم . زحف فرديناند على شرقى الأندلس . مسيره الى مدينة بسطة . بسالة المسلمين فى الدفاع عنها . حصارها وتسليمها . يأس مولاى الزغل وخضوعه لفرديناند . دخول النصارى وادى آش . نزول الزغل عن حقوقه وجوازه الى المغرب . رواية عن سلوك الزغل .

تبوأ أبوعبدالله محمد بن السلطان على أبى الحسن عرش غرناطة للمرة الثانية ، عقب عودة من الأسر بنحو عام ، ولكنه لم يكن يحكم تلك المرة سوى مملكة صغيرة ، وكان المفروض فوق ذلك أنه يحكمها باسم ملك قشتالة وتحت حمايته . وكانت الخطوب والفتن التى توالت على مملكة غرناطة قد مزقتها ، ولم يبق منها بيد المسلمين سوى بضع مدن وقواعد متناثرة ، مختلفة الرأى والكلمة ، ينضوى بعضها تحت لوائه وتشمل الأنحاء الشمالية الغربية ؛ وينضوى البعض الآخر تحت لواء عمه محمد بن سعد (الزغل) وتشمل الأنحاء الشرقية والجنوبية . وكان واضحاً أن مصير المملكة الإسلامية أصبح يهتز فى يد القدر ، بعد أن نفذت جيوش النصرانية إلى قلبها ، واستولت على كثير من قواعدها وحصونها الداخلية ، مثل الحامة ولوشة وبلش وغيرها . وكان ملك قشتالة يحرص على المضى فى تحقيق خططه لسحق البقية الباقية من دولة الإسلام فى الأندلس قبل أن يعود إليها اتحاد الكلمة ، فيبعث إليها روحاً جديدة من العزم والمقاومة . وكان من الطبيعى أن يؤثر البدء بغزو القواعد الشرقية والجنوبية التى

يسيطر عليها مولاى الزغل، لأن الزغل لم يكن يدين بطاعته ، وكان يبدى فى مقاومته عزماً لا يلين ولا يخبو ، ولأنه من جهة أخرى كان يرتبط بأمير غرناطة بصلح يمتد إلى عامين ، وقد أراد أن يسبغ على عهوده مسحة غادرة من الوفاء ، وأخيراً لأنه كان يريد أن يعزل غرناطة وأن يطوقها من كل صوب ، قبل أن يسدد إليها الضربة الأخيرة.

وقد رأينا كيف سقطت قاعدة بلش حصن مالقة من الشرق فى يد النصارى ، بعد دفاع عنيف ، فى جمادى الأولى سنة ٨٩٢ هـ (مايو ١٤٨٧) . وعلى أثر سقوطها غادرها معظم أهلها ، وتفرقوا فى أنحاء الأندلس الأخرى الباقية بيد المسلمين ، وجاز كثير منهم إلى عدوة المغرب ، واستولى النصارى على جميع الحصون والقرى المجاورة ، واستطاعوا عندئذ أن يشرفوا على مالقة من كل صوب . وكانت مالقة ماتزال أمنع ثغور الأندلس ، وقد أضحت بعد سقوط جبل طارق عقد صلتها الأخير بعدوة المغرب ، وكان فرديناند يحرص على أن يقطع كل وسيلة ناجعة لقدوم الأمداد من إفريقية وقت الصراع الأخير . وكان الاستيلاء على مالقة يحقق هذه الغاية . ومن ثم فانه ما كاد النصارى يظفرون بالاستيلاء على بلش والحصون المجاورة ، حتى زحفوا على مالقة وطوقوها من البر والبحر بقوات كثيفة ، وذلك فى جمادى الثانية سنة ٨٩٢ هـ (يونيه ١٤٨٧) وامتنع المسلمون داخل مدينتهم ، وكانت تموج بالمدافعين وعلى رأسهم نخبة مختارة من أكابر الفرسان ، ومعهم بعض الأنفاط والعدد الثقيلة . وكانت مالقة تدين بالطاعة للأمير محمد بن سعد (الزغل) صاحب وادى آش ، ولكنه لم يستطع أن يسير إلى إنجادها بقواته خوفاً من غدر ابن أخيه أمير غرناطة ، فترك مالقة إلى مصيرها وهو يذوب تحسراً وأسى . ولكنه فكر فى وسيلة أخيرة لعلها تجدى فى إنقاذ الأندلس من خطر الفناء الداهم ، هى أن يستغيث بملوك الإسلام لآخر مرة ، فأرسل رسلا إلى أمراء إفريقية وإلى سلطان مصر الأشرف قايتباى. ولم يكن من المنتظر إزاء بعد المسافة أن تصبر مالقة على ضغط النصارى حتى يأتيها المدد المنشود . وكان يتولى الدفاع عن الثغر المحصور جند غمارة وزعيمهم حامد الثغرى. وأبدى المسلمون فى الدفاع عن ثغرهم أروع ضروب البسالة والجلد ، وحاولوا غير مرة تحطيم الحصار المضروب عليهم ، وفتكوا بالنصارى فى بضع مواقع محلية ، ومع ذلك فقد ثابر النصارى على ضغطهم وتشديد نطاقهم حتى قطعت كل علاقة للمدينة

المحصورة مع الخارج ، ومنعت عنها سائر الأمداد والأقوات ؛ وعانى المسلمون داخل مدينتهم أهوال الحصار المروع ، واستنفدوا كل ماوصلت إليه أيديهم من الأقوات ، وأكلوا الجلود وأوراق الشجر . وفتك بهم الجوع والإعياء والمرض ، ومات كثيرون من أنجاد فرسانهم ، ولم يجدوا فى النهاية لهم ملاذاً سوى التسليم على أن يؤمنوا فى أنفسهم وأموالهم . وهكذا سقطت مالقة بعد دفاع مجيد استطال ثلاثة أشهر فى أيدى النصارى ، وذلك فى أواخر شعبان ٨٩٢هـ (اغسطس ١٤٨٧م) . ولم يحافظ فرديناند على ما بذله لأهلها من عهود لتأمين النفس والمال ، وأصدر قراراً ملكياً باعتبار أهلها المسلمين رقيقاً يجب عليهم افتداء أنفسهم ومتاعهم ، ويفرض على كل نفس منهم مهما كان السن والظروف فدية قدرها ثلاثون « دوبلا » ، ويبيح لمن يريد السفر منهم إلى المغرب الانتقال على النفقة الملكية ، وللباقين منهم أن يذهبوا إلى حيث شاءوا ، ماعدا مملكة غرناطة ، ولهم الحرية والأمان (١) . ودخل النصارى المدينة دخول الفاتحين ، وعاثوا فيها وسبوا النساء والأطفال ، ونهبوا الأموال والمتاع ، وفر من استطاع من المسلمين إلى غرناطة أو وادى آش أو جاز إلى العدوة . وكان هذا التصرف نموذجا لما يضمره ملك النصارى نحو معاملة المسلمين المغلوبين ، ولما تنطوى عليه سياسته من نكث للوعود والعهود . وتقول الرواية الإسلامية المعاصرة فى وصف محنة أهل مالقة « وكان مصابهم مصاباً عظيما تحزن له القلوب وتذهل له النفوس ، وتبكى لمصابهم العيون »(٢).

— ٢ —

ولنعد الآن إلى قصة السفارات التى أوفدها أبو عبدالله الزغل إلى ملوك إفريقية ومصر وقسطنطينية يستغيث بهم ، ويلتمس نصرتهم . والتجاء الأندلس إلى ملوك العدوة فى طلب الغوث والنجدة أمر طبيعى وتقليد أندلسى قديم ، أشرنا إليه مراراً فيما تقدم . ولكن دول المغرب كانت يومئذ يسودها الضعف والتفرق ، ولم يكن فى استطاعتها أن تهرع إلى إنجاد الأندلس ، كما فعلت فى الماضى غير مرة . ولم يلب نداء مولاى الزغل سوى شراذم ضئيلة من المجاهدين المتطوعين ، جازت البحر إلى الأندلس ، واشتركت فى نضالها الأخير .

---

(١) Irving : Conquest of Granada p. 220, 221; H, Ch. Lea: The Moriscos p. 16

(٢) أخبار العصر ص ٢٧ و ٢٨ .

وأما استغاثة الأندلس بمصر فكانت حدثاً جديداً . على أنه لم يكن ثمة ريب فى أن الحوادث الأندلسية المفجعة ، كانت قد ذاعت يومئذ فى أنحاء العالم الإسلامى ، واهتز لمصابها أمراء الإسلام قاطبة . وكان صداها يتردد فى بلاط القاهرة وغيره من قصور المشرق ، وكان أمراء الأندلس وزعماؤها مذ لاح لهم شبح الخطر الداهم ، يتجهون بأبصارهم إلى دول المغرب والمشرق معاً ، وكانت كتبهم ونداءاتهم فى تلك الآونة العصيبة تترى على مراكش والقاهرة وقسطنطينية . وفى صحف العصر مايدل على أن مصر كانت بنوع خاص تتبع حوادث الأندلس باهتمام وجزع ، فان ابن إياس مؤرخ مصر فى ذلك العصر لم يفته أن يدون فى حولياته هـذه الحوادث تباعاً ، فنراه يقول فى حوادث ذى الحجة سنة ٨٨٦هـ (١٤٨١م) مايأتى : « وفيه جاءت الأخبار من بلاد الغرب أن أبا عبدالله محمد بن أبى الحسن بن على بن سعد بن الأحمر قد ثار على أبيه الغالب بالله صاحب غرناطة وملكها من أبيه ، وجرت بينهما أمور يطول شرحها ، وآل الأمر بعد ذلك إلى خروج الأندلس عن المسلمين ، وملكها الفرنج والأمر لله فى ذلك » . وفى حوادث رجب سنة ٨٩٠هـ (١٤٨٥م) . « وفى رجب جاءت الأخبار بوفاة ملك الأندلس صاحب غرناطة ، وهو الغالب بالله أبو الحسن » . وفى حوادث جمادى الآخرة سنة ٨٩١هـ (١٤٨٦م) « إن صاحب غرناطة (أبا عبدالله) توجه إلى عمه يسأله أن يرسل له نجدة تعينه على قتال صاحب قشتالة وان الفتن هناك قائمة والأمر لله » (١) . وهكذا كانت حوادث الأندلس تتردد رغم بعد المسافة وصعوبة المواصلة فى مصر ، ويدونها مؤرخ مصر المعاصر ، وإن كان فى إيرادها تنقصه الدقة والوضوح .

وكانت مصر ترتبط يومئذ مع ثغور الأندلس ولاسيما مالقة وألمرية بعلائق تجارية وثيقة . وكان لمصر هيبتها التالدة بين الدول النصرانية منذ الحروب الصليبية ، وبالأخص لأنها تحكم البقاع النصرانية المقدسة ، وبين رعاياها ملايين من النصارى . ولم يكن غريباً أن تفكر الأندلس فى محنتها القاسية فى الإستغاثة بمصر بعد أن رأت قصور الدول المغربية عن إنجادها . وكان من الطبيعى أن تهتم دول الإسلام من أقصاها إلى أقصاها بمصير الأمة الأندلسية ، وأن تفكر فى التماس السبيل إلى غوثها

---

(١) راجع ابن أياس : تاريخ مصر (بولاق) ج ٢ ص ٢١٦ و ٢٣٠ و ٢٣٧ .

إن استطاعت إلى ذلك سبيلا . ولا تشير المصادر الإسلامية إلى فكرة أو سياسة معينة وضعتها أو اعتزمتها الدول الإسلامية لتحقيق هذه الغاية ، ولكنها تشير فقط إلى سفارة أندلسية وفدت على بلاط مصر . على أن المصادر الغربية تشير بالعكس إلى أن خطة كهذه قد وضعت ونظمت . وخلاصة ماتقوله فى ذلك هو أن المشرق كله اهتز لحوادث الأندلس وسقوط قواعدها السريع فى يد النصارى ، وأن بايزيد الثانى سلطان الترك والأشرف قايتباى سلطان مصر ، تهادناً موقتاً بالرغم مما كان بينهما من خصومات مضطرمة وحروب دموية ، وعقدا محالفة لإنجاد الأندلس وإنقاذ دولة الإسلام فيها ، ووضعا لذلك خطة مشتركة خلاصتها أن يرسل بايزيد الثانى أسطولا قوياً لغزو جزيرة صقلية التى كانت يومئذ من أملاك اسبانيا ، ليشغل بذلك اهتمام فرديناند وإيزابيلا ، وأن تبعث سريات كبيرة من الجند من مصر وإفريقية تجوز البحر إلى الأندلس ، لتنجد جيوشها وقواعدها (١) . ومن الصعب أن نعتقد بأن مثل هذه الخطة الموحدة ، يمكن أن يتفق عليها بين مصر وقسطنطينية فى مثل الظروف التى كانت تجوزها علائق البلدين يومئذ ؛ فقد كانت علائق جفاء وقطيعة ، وكان الترك يتربصون بمصر ويطمحون إلى غزوها ، وكانت مصر تخشى العدوان ويسودها التوجس والحذر ، وكان انفصام العلائق بين تركيا ومصر على هذا النحو أبعد من أن يسمح بعقد مثل هذا التحالف بينهما . وكل مايمكن قوله فى هذا الشأن هو أن فكرة إنجاد الأندلس كانت تلقى فى بلاط القاهرة وقسطنطينية نفس العطف ، وإن لم يتفاهما فى ذلك على خطة موحدة .

وعلى أى حال فمن المحقق الذى لاريب فيه أن مصر قد تلقت استغاثة الأندلس ، ووضعت خطة دبلوماسية خاصة لإسعافها وإنجادها . وقد وصلت سفارة الأندلس إلى مصر فى أواخر سنة ٨٩٢هـ (نوفمبر سنة ١٤٨٧م) . ويصف ابن إياس هذه السفارة فيما يأتى : « وفى ذى القعدة (سنة ٨٩٢هـ) جاء قاصد من عند ملك الغرب صاحب الأندلس ، وعلى يده مكاتبة من مرسله تتضمن أن السلطان يرسل له تجريدة تعينه على قتال الفرنج ، فانهم أشرفوا على أخذ غرناطة وهو فى المحاصرة معهم . فلما سمع السلطان ذلك ، اقتضى رأيه أن يبعث إلى القسوس الذين بالقمامة التى بالقدس

---

(١) راجع : Irving: Conquest of Granada p. 172

بأن يرسلوا كتاباً على يد قسيس من أعيانهم ، إلى ملك الفرنج صاحب نابل ، بأن يكاتب صاحب إشبيلية بأن يحل عن أهل مدينة غرناطة ويرحل عنهم ، وإلا يشوش السلطان على أهل القمامة ، ويقبض على أعيانهم ، ويمنع جميع طوائف الفرنج من الدخول إلى القمامة ويهدمها ، فأرسلوا قاصدهم وعلى يده كتاب إلى صاحب نابل ، كما أشار السلطان ، فلم يفد ذلك شيئاً وملك الفرنج مدينة غرناطة فيما بعد » (١) .

وفى رواية ابن إياس شيء من اللبس . ذلك أن حصار النصارى الأخير لغرناطة ، لم يبدأ إلا فى مارس سنة ١٤٩١ الموافق جمادى الثانية سنة ٨٩٦هـ ، فالأمر لم يكن متعلقاً إذاً بانقاذ غرناطة . وكانت جيوش فرديناند وإيزابيلا منذ بداية سنة ٨٩٢ هـ تتدفق حسبما رأينا على أراضى مولاى الزغل لكى تنتزع منه الثغور الجنوبية . وقد استولت على بلش فى جمادى الأولى من هذا العام (مايو ١٤٨٧) ، ثم زحفت توا على مالقة ، وضربت حولها الحصار فى جمادى الثانية (يونيه سنة ١٤٨٧م) . وقد وصل صريخ الأندلس إلى مصر فى أواخر سنة ٨٩٢هـ . وذلك بعد أن سقطت مالقة فى يد النصارى بنحو ثلاثة أشهر . وإذاً فمن الواضح أن هذا الصريخ كان متعلقاً بانقاذ مالقة ، وأنه كان صادراً من مولاى الزغل بطل الأندلس والمدافع عنها يومئذ ، والمشفق عليها من السقوط ، ولم يصدر من صاحب غرناطة وهو ابن أخيه أبو عبدالله محمد ، وقد كان يومئذ يعيش آمناً فى ظل الهدنة الغادرة التى عقدها مع النصارى .

ولم يكن من الميسور على مصر أن تلبى نداء الأندلس بطريقة فعالة ، فترسل إليها الأمداد أو المساعدات المادية على مابينهما من بعد الشقة ، وعلى ما كان يشغل مصر يومئذ من الحوادث الداخلية ، وتوجسها من عدوان الترك على حدودها الشمالية . ولكن مصر حاولت مع ذلك أن تعاون الأندلس بطريق الدبلوماسية ، والضغط السياسى . وسلك بلاط القاهرة فى ذلك خطة تدلى بذكائه وحزمه ، وتدلى بالأخص بوقوفه على مجرى الشئون الخارجية ، وتطور العلائق الدبلوماسية فى هذا العصر .

ذلك أن سلطان مصر الملك الأشرف ، أجاب عن سفارة الأندلس بتوجيه سفارة مصرية إلى البابا وملوك النصرانية . واختار لأدائها راهبين من رعاياه النصارى ، أحدهما القس انطونيو ميلان رئيس دير القديس فرنسيس فى بيت المقدس ، وعهد

---

(١) تاريخ مصر ج ٢ ص ٢٤٦ .

إليهما يكتب إلى البابا وهو يومئذ إنوصان الثامن ، وإلى ملك بابل (نابولى) فرديناند الأول ، وإلى فرديناند وإيزابيلا ملكى قشتالة وأراجون . وفى هذه الكتب يعاتب سلطان مصر ملوك النصارى على ماينزل بأبناء دينه المسلمين فى مملكة غرناطة ، وعلى توالى الإعتداء عليهم ، وغزو أراضيهم ، وسفك دمائهم ، فى حين أن رعاياه النصارى فى مصر وبيت المقدس ، وهم ملايين ، يتمتعون بجميع الحريات والحمايات ، آمنين على أنفسهم وعقائدهم وأملاكهم . ولهذا فهو يطلب إلى ملك قشتالة وأراجون الكف عن هذا الاعتداء ، والرحيل عن أراضى المسلمين ، وعدم التعرض لهم ، ورد ما أخذ من أراضيهم ، ويطلب إلى البابا وملك نابل أن يتدخلا لدى ملكى قشتالة وأراجون ، لردهما عن إيذاء المسلمين والبطش بهم ، هذا وإلا فان ملك مصر سوف يضطر إزاء هذا العدوان ، إن يتبع نحو رعاياه النصارى سياسة التنكيل والقصاص ، ويبطش بكبار الأحبار فى بيت المقدس ، ويمنع دخول النصارى كافة إلى الأراضى المقدسة ، بل ويهدم قبر المسيح ذاته وكل الأديار والمعابد والآثار النصرانية المقدسة (١) .

وغادر القس انطونيو ميلان وزميله الديار المصرية لتأدية سفارة مصر إلى ملوك النصرانية ، ولسنا نعرف موعد هذا الرحيل بالضبط ، ولكن السفيرين وصلا إلى اسبانيا فى خريف سنة ١٤٨٩ م أعنى لنحو عام ونصف من وصول صريخ الأندلس إلى القاهرة . وكانت مالقة قد سقطت فى يد النصارى منذ عامين ، واستولوا على طائفة أخرى من الحصون والقواعد ، ثم تحولوا بعد ذلك إلى بسطة حسبما قدمنا ، وضرب فرديناند حولها الحصار . وهنالك أمام أسوار بسطة وفد القس انطونيو ميلان وزميله إلى معسكر النصارى فى أواخر سنة ١٤٨٩م ، فاستقبلهما فرديناند بحفاوة وترحاب ، واستلم كتاب السلطان ، واستمع إلى رسالتهما بعناية . وكان السفيران قد عرجا فى طريقهما على رومة ونابل أولا ، وقدما كتب السلطان إلى البابا إنوصان الثامن وإلى ملك نابل ، فكتب البابا إلى فرديناند وإيزابيلا يسألهما عما يجيب به على مطالب السلطان ووعيده ، وكتب ملك نابل (فرديناند الأول) إليهما يستفهم عن

---

(١) ابن إياس فى تاريخ مصر ج ٢ ص ٢٤٦ و Prescott: Ferdinand and Isabella p. 278 Irving : ibid. p. 227 . وظاهر أن فى رواية ابن أياس عن تأليف سفارة مصر بعض النقص . ولكن ملخصة لمحتويات الكتب السلطانية فى منتهى الدقة .

سير الحرب الأندلسية ، ويلومهما على اضطهاد المسلمين ، وينصح بالكف عنه حتى لايتعرض نصارى المشرق إلى قصاص السلطان . ويرجع تدخل ملك نابل على هذا النحو إلى خلاف بينه وبين ملك أراجون على حقوق عرش نابل ، وإلى تخوفه من أن يرتد فرديناند إلى محاربته متى تم ظفره بفتح الأندلس . ثم زار القسان أيضاً مدينة جيان حيث كانت الملكة إيزابيلا ، وأبلغاها موضوع سفارتهما ولقيا منها نفس الحفاوة والترحاب (١) .

ولم ير فرديناند وإيزابيلا فى مطالب السلطان ووعيده مايحملهما على تغيير خطتهما ، فى الوقت الذى أخذت فيه قواعد الأندلس الباقية تسقط تباعاً فى أيديهما ، واقترب فيه أجل الظفر النهائى ؛ ولكنهما رأيا مع ذلك إجابة السلطان ، فكتبا إليه فى أدب ومجاملة ، « أنهما لايفرقان فى المعاملة بين رعاياها المسلمين والنصارى ، ولكنهما لايستطيعان صبراً على ترك أرض الآباء والأجداد فى يد الأجانب ، وأن المسلمين إذا شاءوا حياة فى ظل حكمهما راضين مخلصين ، فانهم سوف يلقون منهما نفس مايلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية » ، وبذا ارتد القسان إلى المشرق يحملان جواب الملكين إلى السلطان ، ومعهما طائفة من التحف والهدايا .

ولسنا نعرف ماذا كان مصير هذه الرسالة ، ولكنا نرجح أنها وصلت إلى بلاط القاهرة ، وإن كنا لانلمس لها أثراً فى حوادث هذا العصر . وليس فى تصرفات حكومة مصر يومئذ مايدل على أن السلطان نفذ وعيده باتخاذ إجراءات معينة ضد النصارى أو ضد الآثار النصرانية المقدسة . والواقع أن بلاط القاهرة كان يشغل عندئذ بحركات بايزيد الثانى ، وصد غاراته المتكررة على الحدود الشمالية . وكان الإضطراب من جهة أخرى يسود شئون مصر الداخلية ، ومن ثم فانه يبدو أن محاولة مصر إنقاذ الأندلس قد وقفت عند هذا الحد ، ولم تتعد قيام مصر بمظاهر دولية تقوم على استغلال الظروف والمؤثرات الدينية . وهكذا فشلت هذه المحاولة الدبلوماسية الفطنة التى بذلتها مصر ، وتركت الأندلس إلى قضائها المحتوم .

— ٣ —

وكان سقوط مالقه أمنع الثغور الأندلسية فى يد النصارى ضربة أنمة للمملكة

---

(١) Irving : ibid ; p. 258, Prescott : ibid ; p. 278

الإسلامية الممزقة ، يحرمها من كثير من ضروب الإمداد والغوث التى كانت تأتيها من وراء البحر ، وكان واضحاً أن ملك قشتالة كان يرمى إلى قطع هذه الأمداد بكل الوسائل . ولم يكن باقياً بعد ضياع جبل طارق ومالقة ، بيد المسلمين من الثغور سوى المرية والمنكب ، وإليهما كانت تفد جموع المتطوعة والمجاهدين ، بالرغم من بعدهما عن شواطىء العدوة ، وكان لابد من الاستيلاء عليهما ، قبل أن تقطع كل صلة للأندلس نهائياً بعدوة المغرب وشمال إفريقية . وقضى فرديناند قبل تنفيذ هذه الخطة زهاء عام ، يعمل على تطهير منطقة مالقة ، والاستيلاء على مابقى من الحصون الشرقية والغربية ، حتى استولى عليها جميعاً ولم يبق منها بيد المسلمين شىء .

وفى خريف سنة ١٤٨٩م (أواخر سنة ٨٩٤هـ) سار فرديناند إلى ثغر المنكب (المونيكار) الواقع فى منتصف المسافة بين مالقة وألمرية ، فاستولى عليه دون مشقة ، ولم تمض أسابيع قلائل حتى زحف على ألمرية وحاصرها ، ولم يطل دفاع هذا الثغر المنعزل ، وسلمت ألمرية للغزاة فى فبراير سنة ١٤٩٠ (٨٩٥هـ) ، ومنحت للتسليم شروطاً أريد أن تكون نموذجاً لما سيمنح لباقى القواعد الإسلامية ، وخلاصتها أن يحتفظ المسلمون بدينهم وشريعتهم وأموالهم ؛ وأن تخفف عنهم أعباء الضرائب وألا يولى عليهم يهودى ، وألا يدخل نصرانى فى « الجماعة » ؛ وأن يختار الأولاد الذين يولدون من أمهات من النصارى لأنفسهم الدين الذى يريدون عند البلوغ ؛ وغير ذلك من المنح المغرية ، وهكذا تم بسقوط ألمرية استيلاء النصارى على جميع شاطىء الأندلس الجنوبى .

ولما تم قطع علائق الأندلس على هذا النحو مع عدوة المغرب وشمال إفريقية ، بدأ فرديناند فى تنفيذ خطته النهائية للقضاء على مابقى فى الداخل من المملكة الإسلامية . وكانت مملكة غرناطة قد انقسمت كما رأينا إلى شطرين ، الأنحاء الشرقية وتشمل وادى آش وأعمالها ويحكمها الأمير محمد بن سعد أبو عبدالله الزغل ، والأنحاء الغربية وتشمل مدينة غرناطة وأعمالها ، ويحكمها الأمير أبو عبدالله محمد بن على ؛ فقرر فرديناند أن يبدأ بالأنحاء الشرقية ؛ وأن يقضى أولا على سلطان أبى عبدالله الزغل لما كان يخشاه من عزمه وشديد بأسه ؛ فما كاد ينتهى من إخضاع ثغر المرية حتى اتجه شمالا نحو مدينة بسطة ، وبقيت الملكة إيزابيلا مع حاشيتها فى جيان على مقربة من الجيش

الفاتح ؛ وكانت بسطة من أهم القواعد الشرقية التى يسيطر عليها مولاى الزغل بعد وادى آش مقر حكمه ؛ ولم يستطع الزغل أن يغادر معقله فى وادى آش للدفاع عن بسطة ، خشية أن يهاجمه ابن أخيه أبو عبدالله فى غيبته ، فأرسل إليها حامية مختارة من أنجاد الفرسان بقيادة الأمير يحيى ؛ وحاول القشتاليون الإطباق على بسطة ومحاصرتها فردهم المسلمون عن أسوارها غير مرة ، ونشبت بين الفريقين خارج الأسوار عدة معارك حامية منى فيها النصارى بخسائر فادحة ؛ ومع أن النصارى بدأوا هجومهم على بسطة فى شهر رجب سنة ٨٩٤هـ (١٤٨٩م) فانهم لم يستطيعوا تطويقها ومحاصرتها بصورة فعلية إلا بعد ذلك بثلاثة أشهر ، وهنا امتنع المسلمون داخل المدينة بعد أن أثخنوا فى عدوهم غير مرة ، واستنفدوا أقواتهم المدخرة . وضيق النصارى الحصار على بسطة مدى ثلاثة أشهر حتى ضاق أهلها بالحصار ذرعاً ، وقلت الأقوات واشتد الكرب . ولما رأى المسلمون أنه لم يبق فى الدفاع ثمة أمل ، وقد نفدت المؤن ، وفتك الجوع والمرض بالعامة ، فاوضوا القشتاليين فى التسليم على شروط اشترطوها ، وفى مقدمتها أن يؤمنوا فى النفس والمال ؛ فقبل النصارى هذه الشروط وسلمت بسطة ، ودخلها النصارى فى العاشر من محرم سنة ٨٩٥ هـ (ديسمبر سنة ١٤٨٩م) وغادرها معظم أهلها إلى وادى آش حاملين ما استطاعوا من أمتعتهم وأموالهم ، وهرعت جميع الحصون والمحلات القريبة إلى التسليم والدخول فى طاعة ملك النصارى ، وهكذا بسط فرديناند سلطانه على قواعد الأندلس الشرقية كلها من البحر إلى الشمال ، ولم يبق خارجاً عن طاعته سوى مدينة وادى آش مقر مولاى الزغل .

على أنه لم تمض أسابيع قلائل ، حتى سارع مولاى الزغل بدوره إلى الانضواء تحت لواء ملك النصارى . وكان الزغل منذ التجأ إلى وادى آش ، يرقب سير الحوادث بجزع ، ويرى قواعد الأندلس تسقط بالتعاقب ، ودون أن ينجدها منجد ، ويرى أمل الإنقاذ يخبو تباعاً . فلما سقطت بسطة آخر القواعد التى يسيطر عليها ، واتجه النصارى نحو وادى آش معقله الوحيد الباقى ، ورأى بالرغم من شجاعته وبسالته أنه يغالب المستحيل ، وأن جيوش النصرانية تحيط به من كل صوب ، اعتزم أمره ، وسار إلى ملك النصارى يعرض عليه طاعته ، والانضواء تحت لوائه ؛ فأجابه فرديناند إلى مطالبه ، وبايعه الزغل وسائر قادته بالخضوع والطاعة ؛ ودخل النصارى مدينة

وادى آش فى أوائل صفر سنة ٨٩٥ هـ (يناير ١٤٩٠م) واتفق أولا أن يستمر الزغل فى حكم أراضيه باسم ملك قشتالة وتحت حمايته ، وأن يلقب بملك أندرش ، وأن يمنح دخلا سنوياً كبيراً . ولكن الزغل لم يلبث أن رأى أنه يستحيل عليه الاستمرار فى ذلك الوضع المهين ، فنزل لفرديناند عن حقوقه وامتيازاته لقاء مبلغ ضخم ، وجاز البحر إلى المغرب ، ونزل فى وهران أولا ثم انتقل إلى تلمسان ، واستقر يقضى بها بقية حياته فى نعمر من الحسرات والندم ، ولبث عقبه هنالك عصوراً يعرفون ببنى سلطان الأندلس ؛ وجاز معه كثيرون من الكبراء الذين أيقنوا أن نهاية الإسلام بالأندلس قد غدت قضاء محتوماً (١) .

وقد نقل إلينا مؤرخ معاصر رواية مفادها أن تسليم مولاى الزغل لملك قشتالة كانت نوعاً من الخيانة المقصودة ، وأنه تنازل هو وقواده عن البلاد التى كانت تحت أيديهم طوعاً مقابل قبض ثمنها ، وذلك لكى ينتقم الزغل من ولد أخيه الأمير أبى عبدالله محمد بن على صاحب غرناطة ، فتصبح بعد خضوع سائر أنحاء الأندلس وحيدة تحت رحمة النصارى ، وترغم على التسليم إليهم ، وينتهى بذلك إمارة أميرها وحكمه(٢) ، وهى رواية لاتتفق فى نظرنا مع ما أُثر عن مولاى الزغل من ضروب العزم والبسالة والشهامة والغيرة الإسلامية ، التى رأيناها ماثلة خلال هذه الحوادث المؤسية ، وإنما استسلم الزغل وخضع ، نزولا على حكم ظروف قاهرة لم يرإلى مغالبتها سبيلا .

---

(١) أخبار العصر ص ٣١ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٣ و ٦١٤ ، وراجع Prescott : ibid ; p. 285

(٢) أخبار العصر ص ٣٢ .

الفصل الثالث

الصراع الأخير

فرديناند وايرابيلا يطلبان تسليم غرناطة . تضعضع المملكة الاسلامية . موقف أبى عبد الله والقادة . الحماسة فى غرناطة . غزو فرديناند لبسائط غرناطة . رد المسلمين للنصارى . خروج أبى عبد الله للغزو . المعارك بين المسلمين والنصارى . محاولة أبى عبد الله استرداد المنكب . الاضطراب فى وادى آش . فرديناند يعلن الامان . هجرة المسلمين من القواعد الذاهبة . تأهب فرديناند لافتتاح غرناطة . زحفه عليها . عيث النصارى فى المروج . محاصرة النصارى لغرناطة . فرديناند ينشىء أمامها مدينة شنتفى . موقف غرناطة وأحوالها . بسالتها فى الدفاع . موسى بن أبى الغسان فارس غرناطة . يثير حماسة الشعب . يقود الفرسان ويزعج النصارى . تنظيم الدفاع داخل المدينة . اشتداد الحصار وانقطاع الامداد . تقرير حاكم المدينة . تصميم موسى على الدفاع . فرديناند يزحف على المدينة . خروج المسلمين للقائه هزيمة المسلمين وارتدادهم . أهوال الحصار . اجتماع السلطان والقادة . تقرير التسليم . اعتراض موسى . ندب الوزير أبى القاسم عبد الملك للمفاوضة . رواية عن التسليم . مفاوضات التسليم . شروط التسليم وضماناته . مصير أبى عبد الله . حلف فرديناند باحترام الشروط . توقيع وثيقة التسليم . ارتياب موسى ونذيره . اذعان أبى عبد الله والجماعة . أقوال موسى ونبوءته . مغادرته لغرناطة . مصيره الغامض . الحزن واليأس فى غرناطة . التعجيل باجراءات التسليم . ارسال الرهائن الى فرديناند . دخول القشتاليين غرناطة . يرفعون الصليب فوق الحمراء . رواية عربية معاصرة عن دخول فرديناند غرناطة . أهبة أبى عبد الله لمغادرة عاصمة ملكه . المناظر المؤسيه والركب الباكى . قصيدة شوقى فى وصفها . اللقاء بين أبى عبد الله وفرديناند . « زفرة العربى الأخيرة » . رثاء الأندلس .

لم يبق على ملكى قشتالة وأراجون ، فرديناند وإيزابيلا ، بعد أن دانت لهما سائر الثغور والقواعد الأندلسية الجنوبية والشرقية ، لإتمام خطتهما فى القضاء على دولة الإسلام بالأندلس ، سوى الاستيلاء على غرناطة آخر القواعد الباقية بيد المسلمين ؛ ولم تكن غرناطة يومئذ مملكة أو دولة ، بل كانت رمزاً فقط للمملكة الإسلامية الذاهبة ، وكانت واسطة عقد تصرمت سائر حباته ، وكانت كالمصباح المرتجف يخبو ضوؤه سراعاً ، فلم يكن يقتضى إطفاؤه سوى الضربة الأخيرة .

وقد رأى فرديناند وإيزابيلا أن الوقت قد حان لتسديد هذه الضربة. عقب استسلام مولاى الزغل، وسقوط وادى آش. ففى أوائل سنة ١٤٩٠ (٨٩٥ هـ) أرسل الملكان النصرانيان سفيراً إلى ملك غرناطة، السلطان أبى عبد الله محمد بن على يطلبان إليه تسليم عاصمته، وذلك وفقاً لشروط معاهدة لوشة التى تعهد فيها بتسليم غرناطة حينما يتم تسليم بسطة والمرية ووادى آش(١). وتقول الرواية الإسلامية المعاصرة، إن ملك قشتالة لم يطلب تسليم غرناطة ذاتها، ولكنه اكتفى بأن طلب إلى أبى عبد الله تسليم مدينة الحمراء أو قصور الحمراء مقر الملك والحكم، وأن يبقى مقيما فى غرناطة فى طاعته وتحت حمايته، أسوة بما فعلته سائر نواحى الأندلس (٢)، أو أن يقطعه أية مدينة أخرى من مدن الأندلس يختار الإقامة فيها، وأن يمده بمال جزيل (٣).

فماذا كان جواب أبى عبدالله؟ لقد كان فى سابق مواقفه، ومما لأته لملك قشتالة، ومحالفته إياه، وما يدين له به من تغلبه على عمه ومنافسه الزغل، وجلوسه على العرش، مايحمل فرديناند وإيزابيلا على توقع استسلامه وخضوعه؛ ولكن حدث عكس ما توقعه الملكان. وكانت الخطوب والمحن التى جازتها الأندلس فى هذه الأعوام المليئة بالحوادث، قد جعلت من أبى عبدالله رجلا آخر؛ وكان هذا الأمير الضعيف يرقب سير الحوادث جزعاً، ويستشف من ورائها القدر المحتوم؛ وكان قد تخلص بانسحاب عمه من الميدان من منافسه القوى، ولكنه فقد فى الوقت نفسه أقوى عضد يمكن الإعتماد عليه فى الدفاع والمقاومة؛ وكانت سائر قواعد الأندلس الأخرى قد غدت نهائياً من أملاك مملكة قشتالة، وعين لها حكام من النصارى، وتذجن من بقى من أهلها أو غدوا مدجنين Mudijares يدينون بطاعة ملك النصارى، وذاعت بها الدعوة النصرانية، وارتد كثير من المسلمين حرصاً على أوطانهم ومصالحهم أو اتقاء الريب والمطاردة؛ ولكن كثيراً منهم ممن أشفقوا على أنفسهم ودينهم، جازوا البحر إلى المغرب، وهرعت جموع غفيرة أخرى منهم إلى غرناطة معقل الإسلام الوحيد الباقى، حتى غدت الحاضرة تموج بسكانها الجدد، وحتى أصبحت تضم

---

(١) Prescott : ibid ; p. 289

(٢) أخبار العصر ص ٣٣.

(٣) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٤.

بين أسوارها وأرباضها أكثر من أربعمائة ألف نفس . وكانت موجة عامة من اليأس والنقمة تغمر هذه الألوف ، التى أوذيت فى الأوطان والأنفس والولد والمال ، دون أن تجنى ذنباً أو جريرة ؛ وكانت فكرة التسليم للعدو الباغى أو مهادنته ، تلقى استنكاراً عاماً . ولم يكن أبو عبدالله يجهل هذا الإتجاه العام ، فلما وفد إليه سفير ملكى قشتالة يطلب التسليم ، ثارت نفسه لهذا الغدر والتجنى ، وأدرك وربما لأول مرة ، فداحة الخطأ الذى ارتكبه فى محالفة هذا الملك الغادر ، ومعاونته على بنى وطنه ودينه ؛ وجمع أبو عبدالله الكبراء والقادة فأجمعوا على رفض ماطلبه الملكان النصرانيان ، وأعلنوا عزمهم الراسخ على الدفاع حتى الموت عن وطنهم ودينهم(١) ، وأبلغ أبو عبد الله ملك قشتالة على يد سفيره ، بأنه لم يعد له القول والفصل فى هذا الأمر ، وأن الشعب الغرناطى يأبى كل تسليم أو مهادنة ويصمم على المقاومة والدفاع ٢) .

هكذا كان جواب أبى عبدالله لملكى قشتالة ، وهكذا حمل الأمير الضعيف بعزم شعبه ، من الإستكانة والمهادنة إلى التحدى والمقاومة ، ودوت غرناطة بصيحة الحرب والجهاد ، وخرجت سريات من الجند المسلمين لتعيث فى الأراضى النصرانية القريبة . وفى ربيع سنة ١٤٩٠ (٨٩٥هـ) خرج ملك قشتالة فى قواته وهو يضطرم سخطاً ، وزحف على بسائط غرناطة فعاث فيها وانتسف الزرع واستاق الماشية ، وخرب الضياع والقرى ، ووصل فى عيثه وتخريبه حتى أسوار الحاضرة ذاتها ، وبرز المسلمون لقتاله وعلى رأسهم أميرهم أبو عبد الله ؛ ووقعت بين الفريقين فى ظاهر غرناطة ، عدة ملاحم دموية ارتحل النصارى على أثرها ، ولم يستطيعوا الدنو من المدينة (رجب سنة ٨٩٥هـ) . وعمد فرديناند حين العودة إلى تحصين بعض الحصون القريبة من غرناطة ، مثل برج الملاحة وبرج رومة وغيرها ، وشحنها بالرجال والعدد استعداداً للمعارك القادمة .

وعلى أثر ارتحال القشتاليين ، خرج أبو عبدالله فى قواته يحاول استرداد بعض الحصون والمراكز القريبة ، فاستولى على قرية البذول عنوة ، ثم استولى على غيرها من القرى ، ودبت فى المسلمين فى تلك الأنحاء روح جديدة ، وثار أهل البشرات

---

(١) أخبار العصر ص ٣٤ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٤ .

(٢) Prescott : ibid ; p. 290

(البشره) وما حولها على حكامهم النصارى ، وبعثوا إلى أمير غرناطة يطلبون عونه ، فخرج أبو عبدالله فى قواته يريد حصن أندرش ، وكان عمه الأمير محمد بن سعد (الزغل) لايزال به ، فلما سمع بمقدمه خرج مع صحبه إلى ألمرية ، وبقى بها إلى أن جاز البحر إلى المغرب كما قدمنا ، واستولى أبو عبدالله على أندرش وغيرها من المحلات والحصون القريبة من غرناطة ، ورتب بها حاميات من المسلمين للدفاع عنها (شعبان ٨٩٥هـ) (١) .

واستمرت هذه المعارك المحلية مدى حين سجالا بين المسلمين والنصارى ، فاسترد النصارى حصن أندرش لأسابيع قليلة من فقده ، وغادره الفرسان المسلمون إذ كانوا قلة لم تستطع للعدو دفعاً . وفى شهر رمضان سنة ٨٩٥هـ خرج أبو عبدالله فى قواته إلى قرية همذان القريبة ، فافتتحها واخترق المسلمون أبراجها الكثيفة ، وكانوا يخشون أن تمتنع عليهم لحصانتها ، واغتنموا منها مقادير وفيرة من الذخائر والأطعمة ، وأسروا من حاميتها نحو مائتين ، وعاد المسلمون إلى غرناطة فرحين ظافرين ، وغمرت الحاضرة المسلمة موجة من البشر والتفاؤل . وفى أواخر رمضان خرج أبو عبدالله فى قواته يريد افتتاح ثغر المنكب ، وإعادة الصلة بين الأندلس وشواطئ المغرب ، وهى صلة يعلق عليها المسلمون أهمية خاصة ، ويعتبرونها من أبواب الغوث والإنقاذ ، واستولى أبو عبدالله فى طريقه على حصن شلوبانية بعد قتال عنيف . وهنا ترامت إليه الأنباء بأن ملك قشتالة قد عاد بجنده إلى مرج غرناطة يعيث فيه فساداً وتخريباً ، فتوقف عن السير . وكان فرديناند قد هاله ماحدث من الإضطراب والتصدع فى المناطق المفتوحة . والواقع أن بوادر الإنتقاض والثورة كانت قد أخذت تسرى إلى وادى آش وما حولها من الضياع والقرى ؛ وأخذ ظفر المسلمين فى تلك المعارك المحلية يذكى عزم الثوار ويشجعهم ، واستجاب أبو عبدالله إلى نداء أهل وادى آش وعاونهم بالرجال والدواب على نقل أمتعتهم وأموالهم ، وعلى الرحيل بالأهل والولد إلى غرناطة ، ونقل من تلك القرى والضياع مقادير وافرة من الحبوب والأطعمة وغيرها . وما كادت جموع المسلمين ترتد راجعة إلى غرناطة ، حتى ظهر فرديناند بجيشه أمام وادى آش ، ورأى أن يأخذ الأمر باللين والرفق ، فأذاع الأمان لمن عاد إلى وطنه ،

---

(١) أخبار العصر ص ٣٦ و ٣٧ .

obeikandl.com

obeikandl.com

وأذن لمن شاء بالرحيل ، وغادر المسلمون وادى آش وأعمالها . وحدث مثل ذلك فى ألمرية وبسطة ، فترك المسلمون بيوتهم وأوطانهم حاملين مااستطاعوا من أمتعتهم وأموالهم ، وسارت منهم جموع غفيرة إلى غرناطة ، وجازت جموع أخرى البحر إلى المغرب ، وأقفرت تلك الأنحاء من معظم سكانها المسلمين ؛ وانتهز أبو عبد الله فرصة هذا الإضطراب ، فاستولى على حصن أندرش للمرة الثانية ، واستولى على عدد آخر من الحصون الهامة (١) .

وهنا أيقن ملك قشتالة أنه لابد لاستتباب الأمور فى المناطق الإسلامية المفتوحة ، من الإستيلاء على غرناطة التى مازالت تثير بمثلها وصلابتها روح الثورة فى تلك الأوطان المغلوبة على أمرها ، فقضى الشتاء كله (سنة ١٤٩٠) فى الاستعداد والأهبة . وفى أوائل سنة ١٤٩١ خرج فرديناند فى قواته معتزماً أن يقاتل الحاضرة الإسلامية حتى ترغم على التسليم . ويقدر بعض المؤرخين هذا الجيش الذى أعد لافتتاح غرناطة بخمسين ألف مقاتل من الفرسان والمشاة ، ويقدره البعض الآخر بثمانين ألفاً (٢) ، وزود فرديناند جيشه بالمدافع والعدد الضخمة والذخائر والأقوات الوفيرة . وأشرف ملك قشتالة بجيشه على فحص غرناطة La Vega الواقع جنوبى الحاضرة الإسلامية ، فى اليوم الثالث والعشرين من ابريل سنة ١٤٩١م (١٢ جمادى الثانية سنة ٨٩٦هـ) وعسكر على ضفاف نهر شنيل ، على قيد فرسخين من غرناطة ، فى ظاهر قرية تسمى « عتقة » . وأرسل فى الحال بعض جنده إلى حقول البشرات القريبة التى تمد غرناطة بالمؤن فاتلفوا زروعها ، وهدموا قراها ، وأمعنوا فى أهلها قتلا وأسراً ، وحولوا المرج الأخضر إلى بسيط من القفر الموحش ، وقطعوا بذلك عن غرناطة مورداً من أهم مواردها (٣) .

وضرب فرديناند حول الحاضرة الإسلامية الحصار الصارم ، وصمم على متابعته حتى تفتح أو تستسلم ، وقرر تأكيداً لهذا العزم أن ينشىء لجيشه فى المكان الذى

---

(١) أخبار العصر ص ٣٨ — ٤٨ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٤ . وراجع أيضاً Prescott ; ibid ; p. 290 & 291 ، ويوجد فرق يسير فى التفاصيل بين الروايتين الإسلامية والنصرانية .

(٢) Prescott : ibid ; p. 291 .

(٣) أخبار العصر ص ٤٤ و Prescott : ibid ; p. 294

عسكر فيه ، مدينة مسورة تقيه برد الشتاء إذا ماحل ، وتم بناء هذه المدينة الجديدة فى ثلاثة أشهر ، وأسمتها الملكة إيزابيلا (سانتافى) Santa Fé وبالعربية (شنتفى) أو العناية المقدسة ، وذلك تنويهاً بالمغزى الدينى لهذه الحرب الصليبية ؛ وما زالت هذه المدينة التاريخية تقوم حتى اليوم ، فى المكان الذى أنشئت فيه فى جنوب غربى غرناطة . ويصفها المؤرخ الإسبانى بأنها « المدينة الإسبانية الوحيدة التى لم تطأهـا قط قدم مسلم (١) » .

— ٢ —

وهكذا بدأ الفصل الأخير فى الصراع بين النصرانية والإسلام فى اسبانيا ؛ ولم يك ثمة شك فى نتيجة هذا الصراع ، الذى أعدت له اسبانيا النصرانية عدتها الحاسمة ، ومهدت له جميع الوسائل والسبل . بلد إسلامى وحيد هو البقية الباقية من دولة عظيمة تالدة ، يحيط به العدو كالموج الزاخر من كل ناحية ، مزوداً بالعدد والمؤن الموفورة ، وقد قطعت كل موارده وصلاته مع الخارج . كان هذا موقف غرناطة آخر الحواضر الإسلامية بالأندلس فى صيف سنة ١٤٩١م . على أن غرناطة لم تكن مع ذلك غنما سهلا ، فقد كانت منيعة بموقعها وظروفها ، تحميها من الشرق آكام جبل شُلير (سييرانفادا) الشامخة ، وتحميها من الجنوب أعنى من الجانب المواجه للمعسكر النصرانى ، أسوار وأبراج فى منتهى الكثافة والمناعة . وكانت غرناطة تموج يومئذ بالوافدين إليها من مختلف القواعد الإسلامية الذاهبة ، وتضم بين أسوارها من السكان أكثر من مائتى ألف نفس ، ومع أن هذا العدد الضخم من الأنفس كان عبئاً ثقيلا على مواردها المحدودة ، فقد كان من بينهم على الأقل زهاء عشرين ألفاً من الصفوة المختارة من الفروسة الأندلسية ، التى ألفت ملاذها الأخير فى العاصمة المحصورة . ومن جهة أخرى فقد كانت الحاضرة الإسلامية منذ بعيد تلمح شبح الخطر الداهم يتربص بها دائماً ، وكانت تعيش فى أهبه دائمة لمواجهته ، وتجمع مااستطاعت من الأقوات والمؤن . فلما دهمها الحصار كانت على أهبة تامة لدفاع طويل الأمد .

كانت غرناطة تستشعر قدرها المحتوم ، ولكنها لم ترد أن تستسلم إلى هذا القدر القاهر ، قبل أن تستنفد فى اجتنابه كل وسيلة بشرية ، ومن ثم كان دفاعها من أمجد

---

(١) Prescott : ibid ; p. 295

مألوف فى تاريخ المدن المحصورة والقواعد الذاهبة ؛ ولم يكن هذا الدفاع قاصراً على تحمل ويلات الحصار مدى أشهر ، بل كان يتعداه إلى ضروب رائعة من الإقدام والبسالة ، فقد خرج المسلمون خلال الحصار لقتال العدو المحاصر مراراً عديدة ، يهاجمونه ويثخنون فى محلاته ، ويفسدون عليه خططه وتدابيره . وتشير الرواية الإسلامية كما تشير الرواية النصرانية إلى هذه المعارك الأخيرة التى وقعت فى بسائط غرناطة بين المسلمين والنصارى (١) . وتنوه الرواية النصرانية بما كان يبديه الفرسان المسلمون من الشجاعة والإقدام والبراعة ، أولئك الأنجاد البواسل هم البقية الباقية من الفروسة الأندلسية ، التى لبثت قروناً زهرة الفروسية فى العصور الوسطى .

وكان روح الفروسة المسلمة فى تلك الآونة العصيبة فارس رفيع المنبت والخلال ، وافر العزم والبراعة ، هو موسى بن أبى الغسان (٢) وهو سليل أحدى الأسر العريقة التى تتصل ببيت الملك ، وأحد هذه الأصول العربية القديمة التى عرفت برائع فروستها ، وعميق بغضها للنصارى ، والتى كانت ترى الموت خيراً ألف مرة من أن يصبح الوطن العزيز مهاداً للكفر . ولم يكن بين أنجاد غرناطة يومئذ من هو أبرع من موسى فى الطعان والفروسية ، وكان مذ تبوأ أبو عبدالله محمد عرش غرناطة ، ينقم منه استكانته وخضوعه لملك النصارى ، ويعمل بكل ما وسع لإذكاء روح الحماسة والجهاد ، وتنظيم الفروسة الغرناطية وتدريبها ، وقيادة السرايا إلى أراضى العدو ، ومفاجأة حصونه وحامياته فى الأنحاء المجاورة . ولما بعث فرديناند الخامس إلى أبى عبدالله يطلب تسليم الحمراء ، كان موسى من أشد المعارضين فى إجابة هذا المطلب المهين ، وكان لعزمه وحماسته أكبر أثر فى تطور الموقف ، وحمل الأمير والشعب على اعتزام الجهاد ، والدفاع إلى آخر رمق ، وكان قوله المأثور يومئذ : « ليعلم ملك النصارى أن العربى قد ولد للجواد والرمح ، فاذا طمح إلى سيوفنا

---

(١) أخبار العصر ص ٤٥ ؛ وكذلك Irving : ibid ; p. 293 & foll.

(٢) لم نعثر فى المصادر العربية التى بين أيدينا على ذكر لموسى أو أعماله ؛ ومرجعنا فى ذلك هو المؤرخ الإسبانى كوندى (الترجمة الانجليزية ج ٣ ص ٣٩٠ وما بعدها) ، ويقول كوندى إنه نقل روايته عن مصادر عربية ؛ ولكنه كعادته لم يذكر لنا هذه المصادر . على أن قصة موسى تشغل حيزاً كبيراً فى الروايات الإسبانية التى كتبت عن فتح غرناطة ، ومن أشهرها روايه القس أنطونيو أجابيدا التى سبقت الإشارة إليها ، والتى ينقل منها ايرفنج فى كتابه شذوراً ضافيه .

فليكسبها ، وليكسبها غالية . أما أنا فخير لى قبر تحت أنقاض غرناطة ، فى المكان الذى أموت مدافعاً عنه ، من أفخم قصور نغنمها بالخضوع لأعداء الدين » .

وهكذا دوت غرناطة بصيحة الحرب . ولما أشرف ملك قشتالة بجموعه على مرج غرناطة ، كان موسى معبود الجند والشعب ، وكان زعيم الفروسة المسلمة يقودها كلما سنحت الفرصة إلى الحصون والقلاع النصرانية المجاورة فتتخن فيها ، وكانت عوداته الظافرة تثير فى الشعب أيما حماسة ؛ وكان فرديناند يرسل جنده لإتلاف المزارع والحقول المجاورة ، فكان موسى ينظم السريات لإزعاج قواته ، وقطع مواصلاته وانتزاع مؤنه ؛ ولكن جيوش النصارى مالبثت أن ملأت فحص شنيل (La Vega) وطوقت غرناطة ، وشددت فى حصارها ، واضطر المسلمون إلى الامتناع بمدينتهم صابرين جلدين ؛ وقسم الدفاع عن المدينة بين زعماء الجيش والأسر ، فتولى موسى قيادة الفرسان يعاونه نعيم بن رضوان ومحمد بن زائدة . وتولى آل الثغرى حراسة الأسوار ، وتولى زعماء القيصبة والحمراء حماية الحصون . ولم تكن المعارك الجريئة التى كان يخوضها المسلمون خارج الأسوار من آن لآخر ، سوى عنوان أخير لفروسيتهم وبسالتهم ولكنها لم تكن لتغنى شيئاً ، أمام ضغط العدو وتفوقه وتصميمه .

ذلك أن ملك قشتالة لم يترك وسيلة لإحكام الحصار وإرهاق المدينة المحصورة ، فقطع جميع علائقها مع الخارج سواء من البر أو البحر ، ورابطت السفن الإسبانية فى مضيق جبل طارق ، وعلى مقربة من الثغور الجنوبية ، لتحول دون وصول أى مدد من إفريقية ، ولم يبق أمام غرناطة سوى طريق البشرات الجنوبية من ناحية جبل شلير (سييرانفادا) يجلب منها بعض الأقوات والمؤن بصعوبة (١) . ولبثت المدينة المحصورة تعانى مصائب الحصار صابرة جلدة ، حتى دخل الشتاء ، وغصت هذه الوهاد والشعب بالثلوج ، واشتد الجوع والبلاء بالمحصورين . عندئذ تقدم حاكم المدينة أبو القاسم عبد الملك ذات يوم إلى مجلس الحكم ، وقرر أن المؤن الباقية لاتكفى إلا لأمد قصير ، وأن اليأس قد دب إلى قلوب الجند والعامة ، وأن الاستمرار فى الدفاع عبث لايجدى . ولكن موسى بن أبى الغسان اعترض كعادته بشدة ، وقرر أن الدفاع ممكن وواجب ، وبث بادرة جديدة من الحماسة فى الرؤساء والقادة .

---

(١) أخبار العصر ص ٤٦ .

فاستسلم السلطان أبو عبدالله محمد إلى تلك الروح ، وسلم إلى القادة أمر الدفاع ، وتولى موسى كعادته قيادة الفرسان ؛ وكان فى مقدمة مساعديه فارسان من أنجاد العصر هما نعيم بن رضوان ومحمد بن زائدة . ثم أمر بفتح الأبواب ، وأعد فرسانه أمامها ليل نهار ، فاذا اقتربت سرية من النصارى دهمها الفرسان المسلمون ، وأثخنوا فيها ، ومزقت على هذا النحو صفوف من النصارى . وكان موسى يقول لفرسانه « لم يبق لنا سوى الأرض التى نقف عليها فاذا فقدناها فقدنا الإسم والوطن » .

وأخيراً رأى ملك قشتالة أن يزحف بقواته على أسوار المدينة ، فخرج المسلمون إلى لقائه وعلى رأسهم أبو عبدالله وموسى ، ونشبت بين الفريقين فى فحص غرناطة عدة معارك دموية ، وكان الفرسان المسلمون وعلى رأسهم موسى روح المعركة وقوامها ، وكان أبو عبدالله يقود الحرس الملكى ، وكان القتال رائعاً خضب فيه كل شبر من الأرض بدماء الفريقين ؛ ولكن المشاة المسلمين كانوا ضعافاً لايعتمد عليهم فمزقوا بسرعة ، وتبعهم فرسان الحرس الملكى إلى أبواب المدينة وعلى رأسهم أبوعبدالله ، وعبثاً حاول موسى أن يجمع شمل الجند ، وأن يدعوهم للذود عن أوطانهم ونسائهم وكل ماهو مقدس لديهم ، والفى نفسه وحيداً فى الميدان مع فرسانه المخلصين ، وقد تضاءل عددهم وأثخن الباقون منهم جراحاً ، فاضطر عندئذ أن يرتد إلى المدينة وهو يرتجف غضباً ويأساً .

وهنا أوصد المسلمون أبواب المدينة وامتنعوا بأسوارها جزعين مكتئبين ، يرون شبح النهاية المحتومة ماثلا ، فلم تبق سوى أيام أو أسابيع قلائل ، حتى يصبح سقوط الوطن العزيز فى يد العدو أمراً واقعاً ، وحتى تصبح أنفسهم وأموالهم وحرياتهم ودينهم رهناً فى يد القدر . وكان قد مضى على حصار غرناطة منذ بدأ الربيع حتى دخول الشتاء زهاء سبعة أشهر ، والمسلمون يغالبون أهوال الحصار ، وتتفاقم محنتهم شيئاً فشيئاً . فلما جاءت خاتمة المعارك مبددة لكل أمل فى الإنقاذ ، واشتد فتك الجوع والحرمان والمرض ، ودب اليأس إلى قلوب الناس جميعاً ، لم يبق مناص من إعادة النظر فى الموقف . فدعا أبو عبدالله مجلساً من كبار الجند والفقهاء والأعيان ، فاجتمعوا فى بهو الحمراء الكبير ، واليأس باد فى وجوههم ، وشرح لهم أبو القاسم عبدالملك كيف وصل الخطب إلى ذروته ، فهلكت أنجاد الفرسان ، وخبت قوى الدفاع ، ونضبت الأقوات

والمؤن ، واشتد البلاء بالناس . وغاض كل أمل فى تلقى الأمداد من عدوة المغرب. وصرح « الجماعة » بأن الشعب لايقوى بعد على تحمل ويلات الدفاع . وأنه لم يبق سوى التسليم أو الموت ، واتفق الجميع على وجوب التسليم(١) . ولم يرتفع بالإعتراض سوى صوت واحد هو صوت موسى بن أبى الغسان . فقد حاول كعادته أن يبث بكلماته الملتهبة قبسا أخيرا من الحماسة ؛ وكان مما قال : « لم تنضب كل مواردنا بعد، فما زال لنا مورد هائل للقوة كثيرا ماأدى المعجزات : ذلك هو يأسنا . فلنعمل على إثارة الشعب ، ولنضع السلاح فى يده ، ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة ؛ وإنه لخير لى أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعاً عن غرناطة ، من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها » .

على أن كلماته لم تؤثر فى هذه المرة . فقد كان يخاطب رجالا نضب الأمل فى قلوبهم ، وغاضت فيهم كل حماسة . ووصلوا إلى حالة من اليأس لاتنجع فيها البطولة ، ولا يحسب للأبطال حساب ، بل يعلو نصح الشيوخ ويغلب . وهكذا حدث فإن السلطان أبا عبدالله فوض الأمر للجماعة ، واتفق الجماعة على مفاوضة ملك قشتالة فى التسليم ، واختير الوزير أبو القاسم عبد الملك للقيام بتلك المهمة ؛ وكان ذلك فى اكتوبر سنة ١٤٩١ (أواخر سنة ٨٩٦هـ) . وتقول بعض الروايات الإسلامية المعاصرة إن أمير غرناطة ووزيره وقواده كان قد تقدم الكلام بينهم وبين ملك قشتالة سرا فى تسليم غرناطة ، ولم يجرأوا على المجاهرة بعزمهم خشية انتقاض الشعب ، وانهم لبثوا حينا يلاطفون الشعب ويملقونه ، حتى أنفوا السبيل ممهداً للعمل برضاء الشعب وموافقته ، ويستشهد أصحاب هذه الرواية بما حدث من انقطاع المعارك بين المسلمين والنصارى حينا قبل بدء المفاوضة فى التسليم ، وتزيد الرواية على ذلك بأن القواد المسلمين الذين اضطلعوا بهذه المفاوضة تلقوا تحفاً وأموالا جزيلة من ملك قشتالة (٢) . ذلك ماتزعمه بعض الروايات المعاصرة التى تنقلها إلينا المصادر الإسلامية . ولو صحت هذه الوقائع لما ترددت الرواية النصرانية فى إثباتها . ولكنا لم نجد فى الرواية النصرانيـــة ما يؤيد مثل هذا التصرف الشائن من جانب زعماء غرناطة ، الذين تشيد الرواية النصرانية

---

(١) أخبار العصر ص ٤٨ و ٤٩ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٥ .

(٢) أخبار العصر ص ٤٨ و ٤٩ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٥ .

بحماسهم وشجاعتهم وبسالتهم، فى الذود عن وطنهم ومدينتهم ، وكل ماهنالك أن الرواية النصرانية تقول لنا إن مفاوضات التسليم أجريت بكل حرص وتكتم . لأن أهل غرناطة كانوا بالرغم من تفاقم محنتهم ، يتطلعون دائماً إلى تلقى الغوث والإمداد من إفريقية أو غيرها (١) . وهذا لايعنى أنه كانت ثمة خيانة أو خديعة للشعب من جانب زعمائه وقادته ، وأنه لم يكن ثمة سوى حرص يقتضيه الموقف والظروف .

— ٣ —

سار أبو القاسم عبدالملك إلى ملك قشتالة ليؤدى مهمته الأليمة . فاستقبله فرديناند بحفاوة . وندب لمفاوضته أمينه فرناندو دى فاثرا ، وقائده جونزالفو دى كردوفا وكان خبيراً بالشئون الإسلامية ، عارفاً باللغة العربية ، وجرت المفاوضات بين الفريقين بمنتهى التكتم ، أحيانا فى غرناطة وأحيانا فى محلة قريبة تعرف بضيعة شريانة ، وبعد مفاوضات طويلة ، انتهى الفريقان إلى وضع معاهدة للتسليم وافق عليها الملكان ، وذلك فى اليوم الخامس والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٤٩١ (٢١ محرم سنة ٨٩٧هـ) .

وتضمنت هذه الوثيقة الشهيرة ، التى قررت مصير آخر الحواضر الإسلامية فى اسبانيا ، شروطاً عديدة بلغت سبعة وستين شرطاً نذكر أهمها فيما يلى :

أن يقف القتال بين الفريقين سبعين يوماً ، فاذا لم تصل خلالها أمداد إلى المسلمين من إخوانهم فى إفريقية سلمت غرناطة ، ودخلت فى طاعة ملك النصارى ؛ وأن يطلق سراح جميع الأسرى النصارى بلا فدية ، ولاسيما أعياناً نص عليهم ، وأن يطلق كذلك سراح جميع الأسرى المسلمين فى قشتالة والأندلس ، وأن يؤمن المسلمون فى أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ، وأن يحتفظوا بشريعتهم وقضائهم ونظمهم ، يزاولونها تحت إشراف الحاكم النصرانى ، وألا يقضى فيما بينهم سوى قضاتهم ، فاذا وقع نزاع بين مسلم ونصرانى ، قضت فيه محكمة مختلطة مؤلفة من قاض من كل من الملتين ؛ وأن يتمتعوا أحراراً بشعائر دينهم من الصلاة والصوم والأذان وغيرها ، وأن تبقى المساجد حرماً مصونة ، وكذلك الأوقاف تبقى على حالها ، وألا تعطى غلات أوقاف المساجد والمدارس وجهات البر إلا للمشرفين عليها ، وألا يدخل نصرانى فى مسجد أو دار مسلم أو يتطلع إليها من فوق الأسوار ، أو يغصب أحداً من

---

(١) Prescott: ibid ; p. 295

المسلمين فى شىء ؛ وألا يكلف ضيافة الأجناد النصارى ، وأن يسير المسلم فى بلاد النصارى آمناً على نفسه وماله ، ولا يحمل أية علامة مميزة كما يحمل اليهود وأهل الدجن ، وألا يولى على المسلمين نصرانى أو يهودى ، وأن يحتفظ المسلمون بأملاكهم أبد الدهر ، وأن يتصرفوا فيها لحسابهم الخاص ، وألا يدفعوا من الضرائب أكثر مما كانوا يدفعونه لملكهم ، وأن يعفوا من الضرائب إطلاقاً مدة ثلاث سنين ، وأن يكون لهم حق الإتجار مع بلاد المغرب وقشتالة والأندلس دون مكوس غير التى يدفعها النصارى ، وأن يجوز إلى إفريقية من شاء من المسلمين ، فى سفن يقدمها ملك النصارى لمدة ثلاث سنين من غير كراء ولا نفقة ؛ وبعد الثلاث سنين يسمح لهم بالجواز مع أخذ عشر مالهم وقيمة الكراء ، وأنه يحق للمسلمين الذين هاجروا إلى بلاد المغرب أن يعودوا إلى الأندلس فى ظرف ثلاث سنين ، وأن يتمتعوا بسائر الحقوق ، وألا يقهر مسلم أو مسلمة على التنصر ، وألا يقهر من أسلم على الرجوع إلى النصرانية ، ومن تنصر من المسلمين يوقف أياماً حتى يقرر أمره ، ويمثل أمام مندوب من المسلمين وآخر من النصارى ، فاذا أبى الرجوع إلى الإسلام ترك وشأنه ؛ وأن يكون للنصرانية المتزوجة بمسلم حق اختيار دينها ؛ وألا يؤخذ مسلم بمن قتل من النصارى أيام الحرب ، ولا يرغم على رد ما سلب فى تلك الفترة ؛ وأن يعامل الحكام والموظفون الذين يندبهم ملك النصارى المسلمين بالرفق والعدل ، وأن يعزلوا أو يعاقبوا إذا جاروا أو ظلموا ، وأن تسلم جميع المدافع والحصون إلى النصارى ، وأن تسلم المدينة فى ظرف ستين يوماً من قرار التسليم ، وأن يصادق البابا على هذه الشروط (وهو شرط اضطر أبو عبدالله إلى التنازل عنه فيما بعد) .وأما فيما يتعلق بالسلطان أبى عبدالله محمد ، فقد اتفق على أن يغادر غرناطة إلى منطقة البشرات ، حيث يقطع ضياعا يعيش من ريعها ، وأن يكون مقره فى أندرش من أعمالها فى طاعة ملك قشتالة وتحت حمايته ، وكذلك اتفق على أن تقدم غرناطة خمسمائة من أعيانها كفالة بالإخلاص والطاعة (١)

تلك هى الشروط التى وضعت لتسليم غرناطة . وقد كانت بلا ريب أفضل ما يمكن الحصول عليه فى مثل هذه المحنة ، لو أخلص النصارى فى عهودهم ؛ وقد

---

(١) راجع أخبار العصر ص ٤٨ و ٥٠ ؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٥ و ٦١٦ ؛ وكذلك ; Prescott ibid ; p. 296

ارتضاها المسلمون مترددين متوجسين ، والشك يساورهم فى إخلاص أعدائهم . ولما آنس فرديناند وإيزابيلا ريب المسلمين وتوجسهم ، أعلنا فى يوم ٢٩ نوفمبر مع قسم رسمى بالله ، أن جميع المسلمين سيكون لهم مطلق الحرية ، فى العمل فى أراضيهم أو حيث شاءوا ، وأن يحتفظوا بشعائر دينهم ومساجدهم كما كانوا ، وأن يسمح لمن شاء منهم بالهجرة إلى المغرب .ولكن سوف نرى أن الإيمان والعهود ، لم تكن عند ملكى النصارى سوى ستار الخيانة والغدر ، وأن هذه الشروط الخلابة نقضت جميعاً لأعوام قلائل من تسليم غرناطة . ولم يتردد المؤرخ الغربى نفسه فى أن يصفها « بأنها أفضل مادة لتقدير مدى الغدر الإسبانى فيما تلا من العصور » (١) . وهذا ماتنبأ به فارس الأندلس موسى بن أبى الغسان حينما اجتمع الزعماء فى بهو الحمراء الكبير . ليوقعوا على قرار التسليم ، وليحكموا على دولتهم بالذهاب ، وعلى أمتهم بالفناء والمحو : عندئذ لم يملك كثير منهم نفسه من البكاء والعويل . ولكن موسى لبث وحده صامتاً عابساً وقال : « أتركوا العويل للنساء والأطفال ، فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق لإرسال الدمع ولكن لتقطر الدماء ، وإنى لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة ؛ ولكن مازال ثمة بديل للنفوس النبيلة . ذلك هو موت مجيد ، فلنمت دفاعاً عن حرياتنا وانتقاماً لمصائب غرناطة ، وسوف تحتضن أمنا الغبراء أبناءها أحراراً من أغلال الفاتح وعسفه ؛ ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاته ، فإنه لن يعدم سماء تغطيه ، وحاشا لله أن يقال إن أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعاً عنها » .

ثم صمت موسى ، وساد المجلس سكون الموت ، وسرح أبو عبدالله البصر حوله ، فاذا اليأس ماثل فى تلك الوجوه التى أضناها الألم ، وإذا كل عزم قد غاض فى تلك القلوب الكسيرة الدامية . عندئذ صاح « الله أكبر لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، ولا راد لقضاء الله . تالله لقد كتب لى أن أكون شقياً ، وأن يذهب الملك على يدى » . وصاحت الجماعة على أثره « الله أكبر ولا راد لقضاء الله » وكرروا جميعاً أنها إرادة الله ولتكن ، وأنه لامفر من قضائه ولا مهرب ، وأن شروط ملك النصارى أفضل مايمكن الحصول عليه . فلما رأى موسى ان اعتراضه عبث لايجدى ،

---

(١) Prescott : ibid ; p. 296

وأن الجماعة قد أخذت فعلا فى توقيع صك التسليم ، نهض مغضباً وصاح : « لاتخدعوا أنفسكم . ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم ، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم . إن الموت أقل مانخشى ، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها ، وتدنيس مساجدنا ، وتخريب بيوتنا ، وهتك نسائنا وبناتنا ؛ وأمامنا الجور الفاحش ، والتعصب الوحشى ، والسياط والأغلال ، وأمامنا السجون والأنطاع والمحارق . هذا ماسوف نعانى من مصائب وعسف ، وهذا ماسوف تراه على الأقل هذه النفوس الوضيعة ، التى تخشى الآن الموت الشريف . أما أنا فوالله لن أراه » . ثم غادر المجلس واخترق بهو الأسود (كورة السباع) عابساً حزيناً ، وجاز إلى أبهاء الحمراء الخارجية ، دون أن يرمق أحداً أو يفوه بكلمة ، ثم ذهب إلى داره وغطى نفسه بسلاحه ، واقتعد غارب جواده المحبوب ، واخترق شوارع غرناطة حتى غادرها من باب إلبيرة ، ولم يره إنسان أو يسمع به بعد ذلك قط .

هذا ماتقوله الرواية الغربية عن نهاية موسى بن أبى الغسان (١) . ولكن مؤرخاً اسبانياً قديماً هو القس أنطونيو أجابيدا يحاول أن يلقى ضياء على مصيره ، فيقول إن سرية من الفرسان النصارى تبلغ نحو الخمسة عشر ، التقت فى ذلك المساء بعينه ، على ضفة نهر « شنيل » بفارس مسلم قد دججه السلاح من رأسه إلى قدمه ، وكان مغلقاً خوذته شاهراً رمحه ، وكان جواده غارقاً مثله فى رداء من الصلب . فلما رأوه مقبلا عليهم طلبوا إليه أن يقف وأن يعرف بنفسه ، فلم يجب الفارس المسلم ، ولكنه وثب إلى وسطهم وطعن أحدهم برمحه وانتزعه عن سرجه فألقاه إلى الأرض ، ثم انقض على الباقين يثخن فيهم طعاناً ، وكانت ضرباته ثائرة قاتلة ، وكأنه لم يشعر بما أثخنه من جراح ، ولم يرد إلا أن يقتل وأن يسيل الدم ، وكأنه إنما يقاتل للانتقام فقط ، وكأنما يتوق إلى أن يقتل دون أن يعيش لينعم بظفره . وهكذا لبث يبطش بالفرسان النصارى حتى أفنى معظمهم ، غير أنه أصيب فى النهاية بجرح خطر ، ثم سقط جواده من تحته بطعنة أخرى ، فسقط إلى الأرض ، ولكنه ركع على ركبتيه واستل خنجره ، وأخذ يناضل عن نفسه . فلما رأى أن قواه قد نضبت ، ولم يرد أن يقع أسيراً فى يد خصومه

---

(١) هذه هى رواية كوندى فيما نقل عن مصادر عربية غير معروفة (الترجمة الانجليزية . ج ٣ ص ٣٩٤) .

ارتد إلى ماورائه بوثبة أخيرة ، وألقى بنفسه إلى مياه النهر ، فابتلعته لفوره ، ودفعه سلاحه الثقيل إلى الأعماق .

يقول الراوية المذكور ، إن هذا الفارس الملثم هو موسى بن أبى الغسان ، وإن بعض العرب المتنصرين فى المعسكر الإسبانى ، عرفوا جواده المقتول . وهى رواية لابأس بها . غير أن الحقيقة لم تعرف قط (١) .

وما كادت أنباء التسليم تذاع حتى عم الحزن والجزع ربوع غرناطة ، واضطرم سواد الشعب يأساً وسخطاً على قادته ، ولا سيما أبى عبد الله الذى اعتبره مصدر كل مصائبه ومحنه ، وكاد السخط يتفاقم إلى الهياج والثورة . لهذا رأى أبو عبد الله والجماعة ، أن يعجل بالتسليم حرصاً على سلامة المدينة وسلامة الزعماء ، فلا ينتظر السبعين يوماً التى نصت عليها المعاهدة . وفى يوم ٢٠ ديسمبر أرسل أبو عبد الله وزيره يوسف ابن كماشه إلى فرديناند مع أربعمائة من الرهائن من الوجوه والأعيان ، تنفيذاً لنص المعاهدة ، وليعرب له عن حسن نية مليكه واستعداده ، كما حمل إليه هدية تتألف من سيف ملوكى وجوادين عربيين مسرجين . واتفق مع ملك قشتالة على تسليم المدينة فى الثانى من يناير سنة ١٤٩٢ (الثانى من ربيع الأول ٨٩٧هـ) أى لتسع وثلاثين يوماً فقط من توقيع عهد التسليم (٢) .

فى صباح هذا اليوم كان المعسكر النصرانى يموج بالضجيج والابتهاج ، ولم يشأ فرديناند أن يسير إلى الحاضرة الإسلامية بنفسه ، قبل التحقق من خضوعها

---

(١) راجع هذه الرواية فى : Irving : Conquest of Granada; Ch. 97

(٢) تخلط معظم الروايات الاسلامية بين تاريخ توقيع المسلمين عهد تسليم غرناطة ، وبين تاريخ استيلاء النصارى الفعلى عليها . وهى تضع هـــذا التاريخ فى الثانى من ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ (٢ يناير سنة ١٤٩٢) (أخبار العصرص ٥٠؛ ونفح الطيب ج ٢ ص ٦١٥؛ وأزهار الرياض ج ١ ص٦٥). والواقع أن عهد التسليم وقع كما رأينا فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٤٩١ م (٢١ محرم سنة ٨٩٧ هـ) وهو يعتبر تاريخ سقوط غرناطة الرسمى فى يد النصارى وذلك بعد تخلى المسلمين عن الدفاع عنها ؛ ولم نجد بين الروايات الاسلامية سوى رواية واحدة هى رواية الوادى اشى تتفق مع الرواية النصرانية فى هذا التفريق فهو يقول ان استيلاء النصارى على غرناطة وقع فى المحرم سنة ٨٩٧ هـ ، وهو تاريخ توقيع عهد التسليم (راجع أزهار الرياض ص ٦١) .

التام ، واستتباب الأمن والسلامة فيها ، فسير إليها قوة كبيرة من الجند وعلى رأسها المطران مندوسا ليحتل قصر الحمراء ، وليمهد الطريق لمقدم الركب الملكى ، وانتظر فرديناند على مقربة من المدينة ، ومن حوله أكابر الفرسان والخاصة فى ثيابهم الزاهية ؛ وكانت الملكة إيزابيلا تنتظر مع حاشيتها على قيد مسافة أخرى .

ودخل الجند القشتاليون مدينة غرناطة من طريق منحرفة ، من بابها الذى يسمى اليوم Los Molinos . وكانت أبهاء الحمراء وأفنيتها الكبيرة ، قد أخليت استعداداً لهذا اليوم . وما كاد النصارى يجوزون إلى داخل القصر الإسلامى المنيف ، حتى رفعوا فوق برجه الأعلى ، وهو المسمى برج المراقبة Torre de la Vela صليباً فضياً كبيراً ، هو الذى كان يحمله الملك فرديناند أثناء حرب غرناطة ، كما رفعوا إلى جانبه علم قشتالة وعلم القديس ياقب ، وأعلن من فوق البرج أن غرناطة أصبحت ملكاً للملكين الكاثوليكيين . ثم انطلقت فرقة الرهبان الملكية ترتل الصلاة . وعلى أثر ذلك سار الموكب الملكى إلى المدينة ، وقد حف الكبراء بالملك والملكة . ودخل فرديناند وإيزابيلا قصر الحمراء ظافرين ، وكل ماهنالك يؤكد الصفة الصليبية العميقة لهذه الحرب التى شهرتها اسبانيا النصرانية على الأمة الأندلسية ، وعلى الإسلام فى اسبانيا .

وتصف لنا الرواية الإسلامية المعاصرة ، دخول ملك قشتالة مدينة غرناطة ، على النحو الآتى :

« فلما كان اليوم الثانى لربيع الأول عام سبعة وتسعين وثمانمائة (٢ يناير سنة ١٤٩٢) أقبل ملك الروم بجيوشه حتى قرب من البلد ، وبعث جناحاً من جيشه فدخلوا مدينة الحمراء ، وأقام هو ببقية الجيوش خارج البلد ، لأنه كان يخاف من الغدر ، وكان طلب من أهل البلد حين وقع الإتفاق على ماذكر ، رهونا من أهل البلد ليطمئن بذلك ، فأعطوا خمسمائة رجل منهم ، وأقعدهم بمحلته . فلما اطمأن من أهل البلد ، ولم ير منهم غدراً ، سرح جنوده لدخول البلد والحمراء ، فدخل منهم خلق كثير وبقى هو خارج البلد . . . . . ثم إن ملك الروم سرح الناس الذين كانوا عنده مرتهنين ، ومؤمنين فى أموالهم وأنفسهم مكرمين . وأقبل فى جيوشه حين اطمأن ، فدخل مدينة الحمراء فى بعض خواصه ، وبقى الجند خارج البلد ، وبقى يتنزه فى الحمراء فى القصور والمنارة المشيدة إلى آخر النهار ، ثم خرج بجنوده وصار

إلى محلته . فمن غد أخذ فى بناء الحمراء وتشييدها ، وتحصينها ، وإصلاح شأنها ، وفتح طرقها ، وهو مع ذلك يتردد إلى الحمراء بالنهار ويرجع بالليل لمحلته ، فلم يزل كذلك إلى إن اطمأنت نفسه من غدر المسلمين ، فحينئذ دخل البلد ، ودار فيه فى نفر من قومه وحشمه . . . . . » . (١)

وهكذا اختتمت المأساة الأندلسية ، واستولى النصارى على غرناطة آخر الحواضر الإسلامية فى اسبانيا ، وخفق علم النصرانية ظافراً فوق صرح الإسلام المغلوب ، وانتهت بذلك دولة الإسلام بالأندلس ، وطويت إلى الأبد تلك الصفحة المجيدة المؤثرة من تاريخ الإسلام ، وقضى على الحضارة الأندلسية الباهرة ، وآدابها وعلومها وفنونها ، وكل ذلك التراث الشامخ ، بالفناء والمحو .

شهد المسلمون احتلال العدو الظافر لحاضرتهم ودار ملكهم ، وموطن آبائهم وأجدادهم ، وقلوبهم تتفطر حزناً وأسى . على أن هذه المناظر المحزنة ، كانت تحجب مأساة أليمة أخرى ، تلك هى مأساة الملك التعس أبى عبدالله آخر ملوك بنى الأحمر وآخر ملوك الإسلام بالأندلس .

فقد قضت معاهدة التسليم كما رأينا ، أن يغادر أبوعبدالله غرناطة مع أسرته إلى البشرات ، وأن يحكم مواضع فى تلك المنطقة ، باسم ملك قشتالة وتحت حمايته ، وأن يكون مقره فى بلدة أندَرَش . فلما اقترب اليوم المروع — يوم التسليم — بادر أبوعبد الله بالرحيل مع أسرته وخاصته وحشمه . وفى نفس اليوم الذى دخل فيه النصارى مدينة غرناطة ، فى اليوم الثانى من يناير سنة ١٤٩٢ م ، غادر أبوعبد الله قصره وموطن عزه ومجد آبائه ، إلى الأبد ، فى مناظر تثير الأسى والشجن .

ففى فجر ذلك اليوم ، كان رنين البكاء يتردد فى غرف قصر الحمراء وأبهائه ، وكانت الحاشية منهمكة فى حزم أمتعة الملك المخلوع وآله ، وقد ساد الوجوم كل محيا ، واحتبست الزفرات فى الصدور . وما كادت تباشير الصبح تبدو ، حتى غادر القصر ، ركب قاتم مؤثر هو ركب الملك المنفى ، يحمل أمواله وأمتعته ، ومن ورائه أهله وصحبه القلائل ، وحوله كوكبة من الفرسان المخلصين . وكانت أمه الأميرة

---

(١) أخبار العصر ص ٥٠ و ٥١ .

عائشة تمتطى صهوة جوادها ، يشع الحزن من محياها الوقور ، ولكن مريمة زوج السلطان وباقى السيدات ، كن يرسلن الزفرات العميقة والدموع السخينة . واخترق الركب غرناطة فى صمت البكور وستره ؛ وحين بلغ الباب الذى سيغادر منه المدينة إلى الأبد ، ضج الحراس بالبكاء لرؤية ذلك المنظر المؤلم . ثم اتجه الركب صوب نهر شنيل فى طريق البشرات .

وليس أبلغ فى وصف هذه المناظر المؤسية من قول شوقى طيب الله ثراه :(١)

مشت الحادثات فى غرف الحمـ ـراء مشى النعش فى دار عرس
هتكت عزة الحجاب وفضت سـدة البـاب من سمير وأنس
عرصـات تخلت الخيل عنهـا واسـتراحت من احـتراس وعس
ومغارة على الليـالى وضـاء لم تجـد للعشى تكرار مس

آخر العهـد بالجزيرة كانت بعـد عرك من الزمان وضرس
فـنراها تقـول راية جيش باد بالأمس بين أسر وحس
ومفاتيحهـا مقـاليد ملك باعهـا الوارث المضـيع ببخس
خرج القـوم فى كتائب صم عن حفاظٍ كموكب الدفن خرس
ركبـوا بالبحـار نعشـا وكانت تحت آبائهم هى العرش أمس

* * *

وكان قد تقرر اللقاء فى صبـاح ذلك اليوم بين أبى عبد الله وملك قشتالة . فخرج أبو عبدالله من باب الحمراء المسمى باب الطباق السبع Siete Suelos فى طريقه إلى لقاء عدوه الظافر ، وسيده الجديد ، فى نفر من الفرسان والخاصة . فاستقبله فرديناند بترحاب وحفاوة فى محلته على ضفة نهر شنيل . وتصف الرواية هذا المنظر المؤثر فتقول إن أبا عبدالله حين لمح فرديناند هم بترك جواده ، ولكن فرديناند بادر بمنعه وعانقه بعطف ومودة . ثم قدم إليه أبو عبدالله مفاتيح الحمراء قائلا « إن هذه المفاتيح هى الأثر الأخير لدولة العرب فى اسبانيا ، وقد أصبحت أيها الملك سـيد تراثنا وديارنا وأشخاصنا . وهكذا قضى الله ، فكن فى ظفرك رحيما عادلا » . وسار

---

(١) من قصيدته السينية الأندلسية الشهيرة ، التى ينحو فيها نحو البحترى فى سينيته .

أبو عبدالله بعد ذلك صحبة فرديناند ، إلى حيث كانت الملكة إيزابيلا ، فقدم إليها تحياته وطاعته . ثم ارتد إلى طريق البشرات ليلحق بأسرته وخاصته . وهنا تقول الرواية إن أباعبدالله أشرف أثناء مسيره فى شعب تل البذول (بادول) على منظر غرناطة . فوقف يسرح بصره لآخر مرة فى هاتيك الربوع العزيزة التى ترعرع فيها ، وشهدت مواطن عزه وسلطانه ، فانهمر فى الحال دمعه ، وأجهش بالبكاء . فصاحت به أمه عائشة : « أجل فلتبك كالنساء ملكاً لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال » . وتعرف الرواية الإسبانية تلك الأكمة التى كانت مسرحاً لذلك المنظر المحزن باسم شعرى مؤثر هو « زفرة العربى الأخيرة » El ultimo Sospiro del Moro ، وما تزال قائمة معروفة حتى اليوم ، يعينها سكان تلك المنطقة للسائح المتجول .

ثم تقول الرواية أيضاً إن باب الحمراء الذى خرج منه أبو عبدالله لآخر مرة ، قد سد عقب خروجه برجاء منه إلى ملك قشتالة . وبنى مكانه ، حتى لايجوزه من بعده إنسان [١] . ومازالت الرواية تعين لنا مكان هذا الباب بين الأطلال الدارسة بجوار أحد الأبراج .

* * *

وقد كان لمحنة الأندلس المؤلمة ونهايتها المحزنة ، وقع عميق فى جنبات العالم الإسلامى ، ولا سيما فى أمم المغرب ، فى الضفة الأخرى من البحر . غير أن هذه المحنة الغامرة لم تثر وحى الشعر ، كما أثاره من قبل سقوط الثغور والقواعد الأندلسية ، أيام أن كان للدولة الإسلامية بقية من القوة والأمل . ذلك أن دولة الشعر الأندلسى كانت قد انهارت منذ بعيد ، وتحطمت الأقلام ، وعقدت المحنة الغامرة كل لسان . ومع ذلك فقد صدرت فى رثاء الأندلس نفثات قوية مؤثرة تهز أوتار القلوب ، معظمها من الضفة الأخرى من البحر من شعراء المغرب .

---

(١) Irving: Conquest of Granada; Ch. 97 وكذلك: Prescott: ibid; p. 298 & 299
ويذكر إيرفنج فى خاتمة كتابه أنه توجد فى متحف جنة العريف (جنراليف) المجاور لقصر الحمراء صورة لأبى عبد الله تمثله بوجه وسيم ولون جميل وشعر أصفر ، ويرتدى ثوباً أصفر يظلله حرير أسود ، وقلنسوة من الحرير الأسود يعلوها التاج ، ويوجد فى متحف مدريد الحربى ثوبان مدرعان يقال إنهما كانا لأبى عبد الله ويبدو من حجميهما أن أبا عبد الله كان كبير القد قوى البنية ؛ ويخصص إيرفنج فى كتابه Tales of the Alhambra فصلا للذكريات الأخيرة الخاصة بابى عبد الله .

ومن أشهر المراثى التى نظمت فى رثاء الأندلس عقب المحنة بقليل : رثاء طويل مؤثر لشاعر أندلسى مجهول يبدو أنه عاصر حوادث المحنة من بدايتها حتى نهايتها . وإليك مقتطفات من تلك المرثية المشجية التى رتبت وفقاً للوقائع والتواريخ :

أحقاً خبا من جو رندة نورها ... وقد كسفت بعد الشموس بدورها
وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت ... منازلها ذات العلا وقصورها
فياساكنى تلك الديار كريمة ... سقى عهدكم مزن يصوب نميرها
أحقاً أخلائى القضاء أبادكم ... ودارت عليكم بالصروف دهورها
فقتل وأسر لا يفادى وفرقة ... لدى عرصات الحشر يأتى سفيرها

* * *

فواحسرتا كم من مساجد حولت ... وكانت إلى البيت الحرام شطورها
ووا أسفا كم من صوامع أوحشت ... وقد كان معتاد الأذان يزورها
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى ... وآياتها تشكو الفراق وسورها
وكم طفلة حسناء فيها مصونة ... إذا أسفرت يسبى العقول سفورها
فأضحت بأيدى الكافرين رهينة ... وقد هتكت بالرغم منها ستورها(١)
وكم فيهم من مهجة ذات ضجة ... تود لو انضمت عليها قبورها
لها روعة من وقعة البين دائم ... أساها وعين لايكف هديرها
وكم من صغير فى حجر أمه ... فأكبادها حراء لفح هجيرها
وكم من صغير بدل الدهر دينه ... وهل يتبع الشيطان إلا صغيرها

* * *

لأندلس ارتجت لها وتضعضعت ... وحق لديها محوها ودثورها
منازلها مصدورة وبطاحها ... مدائنها موتورة وثغورها
تهائمها مفجوعة ونجودها ... وأحجارها مصدوعة وصخورها
وقد لبست ثوب الحداد ومزقت ... ملابس حسن كان يزهو حبورها
فأحياؤها تبدى الأسى وجمادها ... يكاد لفرط الحزن يبدو ضميرها
فمالقة الحسناء ثكلى أسيفة ... قد استفرغت ذبحاً وقتلا حجورها

---

(١) يكرر الشاعر فى هذه الأبيات نفس المعانى التى وردت فى مرثية أبى البقاء الرندى الشهيرة.

وجزت نواصيها وشلت يمينها ... وبدل الويل المبين سرورهـا
وقد كانت الغربية الجـنن التى ... تقيها فأضحى جنة الحرب سورها
وبلش قطت رجلها بيمينهـا ... ومن سريان الداء بان قطورها
وضحت على تلك الثنيات حجرها ... فأقفر مغناها وطاشت حجورها
وبالله إن جئت المنكب فاعتبر ... فقد خف ناديها وجف نضيرها
ألا ولتقف ركب الأسى بمعـالم ... قد ارتج باديها وضج حضورها
بدار العلا حيث الصفات كأنها ... من الخلد والمأوى غدت تستطيرها
محـل قرار الملك غرناطة التى ... هى الحضرة العليا زهتها زهورهـا
ترى الأسى أعلامها وهى خشع ... ومنبرها مستعبر وسريرهـا
ومأمومهـا ساهى الحجى وأمامها ... وزائرها فى مأتم ومزورهـا
وبسطة ذات البسط ما شعرت بما ... دهاها وأنى يستقيم شـعورها
وما أنس لا أنس المريّة إنهـا ... قتيلة أوجال أزيل عـذارها
منازل آبائى الكرام ومنشىء ... وأولى أوطان غذانى خيرها(١)

ثم يشير الشاعر بعد هذا الترتيب التاريخى لسقوط قواعد الأندلس، إلى محاولة الإسبان تنصير المسلمين لأول مرة وما ترتب على ذلك من قيام الثورة فى بعض الجهات :

وجاءت إلى استئصال شأفة ديننا ... جيوش كموج هبت دبورها
علامات أخذ مالنا قبل بها ... جنايات أخذ قد جناها مثيرها
فلا تنمحى إلا بمحو أصولهـا ... ولا تتجلى حتى تخط أصورها
معاشر أهل الدين هبوا لصعقة ... وصاعقة وارى الجسوم ظهورها
أصابت منار الدين فانهد ركنه ... وزعزع من أكنافه مستطيرها
إلا واستعدوا للجهاد عزائماً ... يلوح على ليل الوغى مستنيرها
بأنفس صدق موقنات بأنهـا ... إلى الله من تحت السيوف مصيرها
تروم إلى دار السلام عرائساً ... على الله فى ذاك النعيم مهورها(٢)

---

(١) يبدو من هذا البيت أن الشاعر كان من أهل المرية ونشأ بها .

(٢) نشر هذه المرثية وهى فى كثر من مائة بيت أحد أدباء الجزائر ، مقرونة بترجمة فرنسية تحت عنوان : Une Elégie andalouse sur la guerre de Grenade . وذكر الناشر وهو

هذا وقد صدرت عن أدباء المغرب فى الضفة الأخرى من البحر ، طائفة كبيرة من المراثى البليغة ، فى نعى الأندلس والإشادة بفضائلها ، وفداحة الخطب فيها . وكان شعراء المغرب لقربهم من مسرح الحوادث ، ووقوفهم على كثير من الأخبار والسير المفجعة ، عن إخوانهم بالأندلس ، أشد من غيرهم تأثراً بالمحنة ، وأكثرهم إفاضة فى ندب ويلاتها [1] .

= ضوبلح محمد، أنه نقلها عن مخطوط محفوظ بمكتبة الجزائر ومؤرخ فى شعبان سنة ٨٩٧ هـ (يونيه سنة ١٤٩٢ م) أعنى بعد سقوط غرناطة ببضعة أشهر . والظاهر أنه حينما وضعت هذه القصيدة كان الإسبان قد بدأوا محاولتهم الأولى لتنصير المسلمين .

(١) نقل إلينا المقرى فى أزهار الرياض بعض هذه المراثى المغربية، ومن ذلك قصيدة أبى العباس احمد بن محمد الصنهاجى المشهور بالدقون (ج ١ ص ١٠٤ وما بعدها) .

الفصل الرابع

ختام المأساة

وقع محنة الأندلس فى العالم الاسلامى . سفارة فرديناند الى بلاط مصر . صدى المأساة فى المغرب . موقف السلطان أبى عبد الله بعد التسليم . عزمه على الجواز الى المغرب . نزوله عن حقوقه لفرديناند . جوازه الى فاس والتجاؤه الى ملكها . دفاع أبى عبد الله المسمى بالروض العاطر الأنفاس . الوزير العقيلى كاتب هذا الدفاع . بعض ماورد فى الدفاع من المنظوم . بعض ماورد فيه من المنثور . اعتذار أبى عبد الله ودفعه لتهمة التفريط والخيانة . استعراض لموقفه وتصرفاته . معترك الفتنة الذى أودى بمملكة غرناطة . تبعة أبى عبد الله . حياته بمدينة فاس . وفاته وعقبه . حمراء غرناطة . تاريخها وأوصافها . ما بقى من أبنيتها وابهائها . تشويه الاسبان لجمالها الأثرى . روعتها وتراثها القصصى . تغدو مسرحا لحوادث غرناطة . مايدور حولها من الأساطير . بهو الأسود ومأساة بنى سراج . الأساطير الغرامية . أصل هذه الأساطير ومغزاها . قصيدة شوقى فى رثاء الحمراء .

لم يكن سقوط غرناطة فى يد النصارى حادثاً فجائياً ، بل كان بالعكس نتيجة طبيعية ، لما تقدمه من الحوادث الأندلسية ، وكان خاتمة محتومة لاستشهاد طويل الأمد . ومع ذلك فقد كان لسقوط غرناطة أو بعبارة أخرى لانتهاء دولة الإسلام فى الأندلس ، وقع عميق فى الضفة الأخرى من البحر ، فى أمم المغرب التى لبثت عصوراً ترتبط بالأندلس بأوثق الروابط ، وفى سائر أنحاء العالم الإسلامى .

وكان للحادث أيضاً وقعه العميق فى سائر الأمم النصرانية ؛ فقد ابتهجت له أيما ابتهاج ، واعتبرته من بعض الوجوه عوضاً لسقوط قسطنطينية فى قبضة الإسلام قبل ذلك بنحو نصف قرن . وخُلدت ذكرى الحادث فى رومه باقامة قداس أعظم ، واستمر ابتهاج الشعب أياماً . ورحبت سائر قصور أوربا بالنبأ ، وأقامت لإحيائه الحفلات الدينية والمدنية ، منوهة بفضل فرديناند وإيزابيلا فى تحقيق هذه الأمنية العظيمة (١) .

---

(١) Prescott : Ferd. & Isabella p. 299 والهامش .

وقد كانت الأندلس تثير منذ البداية جزع الأمم الإسلامية وعطفها . ولكن الأمم الإسلامية لم تستطع أن تبذل أى مجهود عملى لإنقاذ الأندلس من قدرها المحتوم ، ولم يتحقق من جهة أخرى ما كانت ترجوه مصر بتدخلها السياسى لدى ملوك النصرانية من أثر ملطف فى سير الحوادث الأندلسية . وقد كانت مصر بالرغم من بعدها تتبع أحوال الأندلس باهتمام خاص ، لم ينتقص منه سوى اضطراب شئونها الداخلية فى ذلك الحين . ولما استولى النصارى على غرناطة ، وحققت بذلك أمنية اسبانيا التاريخية كاملة شاملة ، لم ينس ملك قشتالة ماجاء فى سفارة سلطان مصر من وعيد بأن ينكل برعاياه النصارى ، ولم يقنع بالخطاب الذى وجهه إليه على يد سفيريه الراهبين . فلما استقرت الأمور وخضعت سائر الأراضى الإسلامية ، رأى فرديناند أن يسعى إلى إقناع سلطان مصر ، بما يلقاه مسلمو الأندلس من الرعاية والرفق فى ظل الحكم الجديد ، فأوفد إلى بلاط القاهرة سفارة جديدة . وكان سفيره إلى السلطان هو : بيترو مارتيرى (١) وهو من أعلام الكتاب والمؤرخين فى ذلك العصر . فوصل إلى القاهرة سنة ١٥٠١م (٩٠٦هـ) . وكان سلطان مصر فى ذلك الحين الملك الأشرف جان بلاط ، فأدى مارتيرى سفارته بكياسة وبراعة . وقدم إلى السلطان شهادات من حكام الجزائر ، تفيد أن المسلمين الذين آثروا الهجرة من الأندلس ، قد نقلوا سالمين إلى الجزائر ، وأحسنت معاملتهم ، واستطاع بذلاقته أن يقنع السلطان بأن يعفى النصارى من طائفة من المغارم والفروض (٢) .

وهكذا كان الصدى الأليم الذى أثارته حوادث الأندلس فى الأمم الإسلامية يخبو شيئاً فشيئاً . ولم تمض أعوام قلائل حتى أسدل عليها فى المشرق حجاب من النسيان . ولكن ذكرى الأندلس وحوادثها ، لبثت حية قوية فى عدوة المغرب عصوراً أخرى . ذلك أن المأساة الأندلسية لم تنته بسقوط غرناطة ، بل كان عليها أن تجوز ثمة فصولا مفجعة أخرى ، قبل أن تصل إلى نهايتها . وكانت هذه الفواجع أول ماتلقى صداها العميق فى الضفة الأخرى من البحر ، حيث كانت العدوة دائماً ملاذ الضحايا الأخير

---

(١) بيترو مارتيرى Pietro Martiri إيطالى ولد سنة ١٤٥٥ وتوفى سنة ١٥٢٥ . وكان حبراً وكاتباً كبيراً . شهد حرب غرناطة الأخيرة إلى جانب فرديناند . وكتب عن سفارته إلى مصر كتاباً خاصاً . وله مؤلفات أخرى فى تاريخ اسبانيا فى ذلك العصر .

(٢) Prescott : ibid ; p. 287

— ٢ —

ولنبدأ بالحديث عن مصير الملك المنكود أبى عبدالله محمد بن على آخر ملوك الأندلس ، فقد غادر غرناطة ساعة استيلاء النصارى عليها ، مع آله وصحبه إلى بلدة أندرش فى منطقة البشرات على مقربة من ألمرية ليقيم فيها فى رعاية ملك اسبانيا وتحت حمايته ، حسبما قضت معاهدة التسليم . بيد أنه لم تمض أشهر قلائل على إقامته فى مقره الجديد ، حتى أدرك كما أدرك عمه مولاى الزغل من قبل ، أن تلك الحياة الذليلة لا تخلق به ولا تجمل ، وأنه يستحيل عليه البقاء فى هذا الوضع المؤلم كعامل لملك قشتالة . وكان فرديناند من جانبه ، ينظر إلى وجوده بعين الريب ، ويخشى أن يكون مثار القلاقل والفتن . وهكذا عول أبو عبدالله أن يحذو حذو عمه فى الجواز إلى إفريقية ، ويقال إن وزيره يوسف بن كماشة هو الذى أقنعه بوجوب الجواز ؛ وقام الوزير بمفاوضة فرديناند فى تحقيق رغبة الملك المخلوع ؛ ويقال من جهة أخرى إن فرديناند هو الذى أمره بالجواز ؛ وعلى أى حال فقد ارتضى أبو عبد الله أن ينزل عن حقوقه الأخيرة لملك قشتالة نظير مبلغ ثمانين ألف دوقية من الذهب . وغادر أبو عبد الله الوطن القديم فى غمر من الحسرات والأسى ، وجاز البحر بأسرته وأمواله من ثغر ألمرية إلى المغرب الأقصى ، فى سفن أعدت لجوازه (سنة ١٤٩٣م) وركب معه كثير من أكابر المسلمين الذين آثروا الرحيل . ونزل أولا فى مليلة ثم قصد إلى فاس واستقر بها [١] . وتقدم إلى ملكها السلطان أبى عبد الله محمد الشيخ ، زعيم بنى وَطّاس[٢] الذين خلفوا بنى مرين فى الملك مستجيراً به ، مستظلا بلوائه ورعايته ، معتذراً عما أصاب الإسلام فى الأندلس على يده ، متبرئاً مما نسب إليه من إثم وتفريط فى حق الوطن والدين .

وهذا الدفاع الشهير الذى يقدمه إلينا أبو عبد الله عن موقفه وتصرفه ، هو قطعة رائعة من الفصاحة السياسية والبيان الساحر ، وهو يدل فى روحه وقوته وروعته ، على فداحة التبعة التى شعر آخر ملوك الأندلس أنه يحملها أمام الله والتاريخ ، وأمام

---

(١) أزهار الرياض ج ١ ص ٦٧ ، ٧١ .

(٢) هم بطن من بطون بنى مرين وقد استولوا على ملك المغرب منذ سنة ٨٧٦ هـ (١٤٧١م) منذ انقراض ملك بنى مرين .

الأمم الإسلامية والأجيال القادمة كلها ، وعلى أن هذا الأمير المنكود لم يرد أن ينحدر إلى غمر النسيان والعدم ، محكوماً عليه دون أن يبسط للتاريخ قضيته ، فيصدر حكمه فيها على ضوء أقواله ودفاعه .

وقد كتب هذا الدفاع الشهير الفريد فى التاريخ الإسلامى ، على لسان أبى عبدالله ، وزيره وكاتبه ، محمد بن عبد الله العربى العقيلى ، فى رسالة مستفيضة قوية مؤثرة ، موجهة إلى ملك فاس ؛ وجعل لها عنواناً شعرياً مشجياً هو : « الروض العاطر الأنفاس فى التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس » . وقد كان العربى من أعلام البلاغة فى هذا العصر .

ولما عول أبو عبدالله على الرحيل إلى المغرب جاز البحر مع أميره ، وجازت قبل سقوط غرناطة وبعده إلى المغرب جمهرة كبيرة من أقطاب العلم والأدب ، هم البقية الباقية من مجتمع الأندلس الفكرى (١). وللعربى آثار فى النظم والنثر ، تبدو لروعتها كأنها نفثات أخيرة لآداب الأندلس المحتضرة ، وكان دفاع أبى عبدالله من أبدعها وأروعها .

ونقل إلينا المقرى مؤرخ الأندلس هذا الدفاع الشهير بنصه فى مؤلفه الجامع « نفح الطيب » ، وكذلك فى كتابه « أزهار الرياض » (٢) . وقد قدم له كاتبه بعد الديباجة بقصيدة رائعة جاء فى مطلعها :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم ... رعيا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا وأنت نعم الجار لمن ... جار الزمان عليه جور منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلباً ... وأفظع الخطب ما يأتى على الرغم
حكم من الله حتم لا مرد له ... وهل مرد لحكم منه منحتم
وهى الليالى وقاك الله صولتها ... تصول حتى على الآساد فى الأجم
كنا ملوكاً لنا فى أرضنا دول ... نمنا بها تحت أفنان من النعم
فأيقظتنا سهام للردى صُيبٌ ... يُرمى بأفجع حتف من بهن رُمى
فلا تنم تحت ظل الملك نومتنا ... وأى ملك بظل الملك لم ينم
يبكى عليه الذى كان يعرفه ... بأدمع مزجت أمواهها بدم

(١) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٧١ .
(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ — ٦٢٨ وأزهار الرياض ج١ ص ٧٢ — ١٠٢ .

ومنها فى التوسل والاعتذار وهو لب موضوعها :

وصل أواصر قد كانت لنا اشتبكت ... فالملك بين ملوك الأرض كالرحم
وابسط لنا الخلق المرجو باسطه ... واعطف ولا تنحرف واعذر ولا تلم
لا تأخذنا بأقوال الوشـاة ولم ... نذنب ولو كثرت أقوال ذى الوخم
فما أطقنا دفاعاً للقضاء ومـا ... أرادت انفسنا ما حل من نقم
ولا ركوباً بإزعاج لسـابحة ... فى زاخر بأكف الموج ملتطم
والمرء ما لم يعنه الله أضـيع من ... طفل تشكى بفقد الأم فى اليتم
وكل ما كان غير الله يحرسـه ... فان محروسه لحم على وضم

* * *

ولا تعاتب على أشياء قد قدرت ... وخط مسطورها فى اللوح بالقلم
وعدّ عما مضى إذ لا ارتجاع له ... وعُد أحرارنا فى جملة الخدم
إيه حنانيك يابن الأكرمين على ... ضيف ألم بفاس غير محتشم
فأنت أنت ولولا أنت ما نهضت ... بنا إليها خطا الوخادة الرسم
رحماك يا راحماً ينمى إلى رُحمـا ... فى النفس والأهل والأتباع والحشم
فكم مواقف صدق فى الجهاد لنا ... والخيل عالكة الأشداق للجم
والسيف يخضب بالمحمرّ من علق ... ما ابيض من سبل واسود من أسم
ولا ترى صدر عضب غير منقصف ... ولا ترى متن لدن غير منحطم
حتى دُهينا بدهيا لا اقتدار بهـا ... سوى على الصون للأطفال والحرم

* * *

تالله ما أضمرت غشا ضمائرنا ... ولا طوت صحة منها على سقم
لكن طلبنا من الأمر الذى طلبت ... ولاتنا قبلنا فى الأعصر الدهم
فخاننا عنده الجدّ الخئون ومن ... تقعد به نكبات الدهر لم يقم
فاسود ما اخضر من عيش دهمته عداً ... بالأسمر اللون أو بالأبيض الخدم
وشتت البين شملا كان منتظما ... والبين أقطع للموصول من حلم
فرب مبنى شديد قـد أناخ بـه ... ركب البلا فقرته أدمع الديم
قمنا لديه أصيلانا نسـائله ... أعيا جوابا وما بالربع من إرم

وما ظننا بأن نبقى إلى زمن ... نرى به غرر الأحباب كالحمم
لكن رضاً بالقضا الجارى وإن طويت ... منا الضلوع على برح من الألم
لبيك يا من دعانا نحو حضرته ... دعاء ابراهيم للحجاج للحرم
وأعط الأمن الذى رصت قواعده ... على أساس وفاء غير منهدم
خليفة الله وافاك العبيد فكن ... فى كل فضل وطول عند ظنهم
وبين أسلافنا ما قد علمت به ... من اعتقاد بحكم الإرث متقدم
وأنت منهم كأصل يطلع غصنا أو ... كالشراك الذى قد قد من أدم
وقد خطوت خطاهم فى مآثر ... فلم يذموا إذن فيها ولم تذم

وهى طويلة فى أكثر من مائة بيت ، وفيها يعطف الشاعر بعد ذلك على مديح ملوك فاس ، والإشادة بعلائقهم القديمة مع بنى الأحمر ملوك غرناطة ، ومما يقول فى ذلك :

أهل الحفيظة يوم الروع يحفظهم ... من عصمة الله مايربى على العصم
بأس تطير شرار منه محرقة ... لكل مدّرع بالحزم محتزم
هم بطائفة التثليث قد فتكوا ... كمثل ما يفتك السرحان بالغنم
وإن يلثمهم يوم الوغى رهج ... أنسوك ما ذكروه عن ذوى اللثم
تضىء آراؤهم فى كل معضلة ... إضاءة السرج فى داج من الظلم
هذا ولو من حياء ذاب محتشم ... لذاب منهم حياء كل محتشم
طابت مدائحهم إذ طابت انفسهم ... فاشتقت النسمات اسما من النسم

وفى مديح السلطان القائم أبى عبدالله الوطّاسى قوله :

أنسى الخلائف فى حلم وفى شرفٍ ... وفى سخاء وفى علم وفى فهم
فجاز معتمداً منهم ومعتضداً ... وامتاز عن قائم منهم ومعتصم
وناصر الدين فى الإقبال فاق وفى ... محبة العلم أزرى بابنه الحكم
أفعال أعدائه معتلة أبداً ... متى يرم جزمها بالحذف تنجزم

ويلى هذه القصيدة الطويلة دفاع أبى عبد الله المنثور ، فى أسلوب يفيض قوة وبياناً ، وفيه يشير أبو عبد الله إلى حوادث الأندلس ، ويعتذر عن محنته ، ويعترف بخطئه فى عبارات مؤثرة ، ويقول بعد الديباجة موجهاً خطابه إلى سلطان فاس :

obeikandl.com

« هذا مقام العائذ بمقامكم ، المتعلق بأسباب ذمامكم ، المترجى لعواطف قلوبكم ، وعوارف أنعامكم ، المقبل الأرض تحت أقدامكم ، المتلجلج اللسان عند محاولة مفاتحة كلامكم . وما الذى يقول من وجهه خجل ، وفؤاده وجل ، وقضيته المقضية عن التنصل والاعتذار تجل . بيد أنى أقول لكم ما أقوله لربى ، واجترائى عليه أكثر ، واجترامى إليه أكبر ؛ اللهم لا برئ فأعتذر ، ولا قوى فأنتصر ، لكنى مستقيل مستنيل ، مستعتب مستغفر ، وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء » .

« على أنى لا أنكر عيوبى ، فأنا معدن العيوب ، ولا أجحد ذنوبى فأنا جبل الذنوب ، إلى الله أشكو عُجرى وبجرى وسقطاتى وغلطاتى . . . . . » .

بيد أنه يدفع عن نفسه تهم التفريط والزيغ والخيانة ويقول :

« فمثلى كان يفعل أمثالها ، ويحمل من الأوزار المضاعفة أحمالها ، ويهلك نفسه ويحبط أعمالها ، عياذاً بالله من خسران الدين ، وإيثار الجاحدين والمعتدين ، وقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين . وايم الله لو علمت شعرة فى فودى تميل إلى تلك الجهة لقلعتها ، بل لقطفت ماتحت عمامتى من هامتى وقطعتها . غير أن الرعاع فى كل وقت وأوان للملك أعداء وعليه أحزاب وأعوان . . . وأكثر ما تسمعه الكذب ، وطبع جمهور الخلق إلا من عصمه الله إليه منجذب ، ولقد قذفنا من الأباطيل بأحجار ، ورُمينا بمالا يرمى به الكفار ، فضلا عن الفجار ، وجرى من الأمر المنقول على لسان زيد وعمرو مالكم منه حفظ الجبار . . . أكثر المكثرون ، وجهد فى تعثيرنا المتعثرون ، ورمونا عن قوس واحدة ، ونظمونا فى سلك الملاحدة . أكفراً أيضاً كفراً ، غفراً اللهم غفراً . وهل زدنا على أن طلبنا حقنا ممن رام محقه ومحقنا ، فطاردنا فى سبيله عداة كانوا لنا غائظين ، فانفتق علينا فتق لم يمكنا له رتق ، وما كنا للغيب حافظين » .

ثم يقول أبو عبدالله ، لئن كان قد نزل به القضاء فثل عرشه ، ونُكس لواؤه ، وأُملك مثواه ، فهو مثل من سواه فى ذلك . ولئن كان مروعاً مصير غرناطة ومصير ملكها وأنجادها ، فانها لم تنفرد بين قواعد الإسلام بذلك المصير المحزن . ألم يقتحم التتار بغداد ، عروس الإسلام ومثوى الخلافة ، ومهد العلوم ، ويستبيحوا ذمارها وحرمها ، ويسحقوا الخلافة وكل معالمها ورسومها ؟ وماذا كانت تستطيع غرناطة

إزاء قدر محتوم ، وقضاء لا مرد له ؟ « والقضاء لا يرد ولا يصد ، ولا يغالب ولا يطالب ، والدائرات تدور ، ولا بد من نقص وكمال للبدور ، والعبد مطيع لا مُطاع ، وليس يطاع إلا المستطاع ، وللخالق القدير جلت قدرته ، فى خليقته علم غيب ، للأذهان عن مداه انقطاع » .

ثم يعطف إلى التجائه إلى ساحة السلطان بقوله : « وأبيها لقد أرهقتنا إرهاقاً ، وجرعتنا من صاب الأوصاب كأساً دهاقا ، ولم نفزع إلى غير بابكم المنيع الجناب ، المتفتح حين سُدت الأبواب ، ولم نلبس غير لباس نعمائكم ، حين خلفنا ما ألبسنا الملك من الأثواب . وإلى أمه يلجأ الطفل لجأ اللهفان ، وعند الشدائد تمتاز السيوف من الأجفان ، ووجه الله تعالى يبقى ، وكل من عليها فان » .

ويشير أبوعبدالله إلى رفضه لما عرضه عليه ملك اسبانيا ، من الإقامة فى كنفه وتحت حمايته فيقول : « ولقد عرض علينا صاحب قشتالة مواضع معتبرة خير فيها ، وأعطى من أمانه المؤكد فيه خطه بايمانه ، مايقنع النفوس ويكفيها ، فلم نر ونحن من سلالة الأحمر مجاورة الصفر ، ولا سوغ لنا الإيمان ، الإقامة بين ظهرانى الكفر ، ما وجدنا عن ذلك مندوحة ولو شاسعة ، وأمنا من المطالب المشاغب حمة شر لنا لاسعة » .

ثم يشير إلى أنه تلقى كذلك دعوات كريمة من المشرق للذهاب والإقامة ، ولكنه آثر الجواز إلى المغرب ، دار آبائه من قبل وملاذهم دائماً عند النوائب ، ولم يرتض سوى الانضواء إلا لذلك الجناب ، أعنى بنى مرين ، الذين أوصى آباؤه وأجداده بالانضواء إليهم ، وقت الخطر الداهم .

ويختتم أبوعبدالله دفاعه برثاء مؤثر لملكه ومصيره فيقول : « ثم عزاء حسناً وصبراً جميلا ، عن أرض أورثها من شاء من عباده ، معقباً لهم ومديلا ، سادلا عليهم من ستور الإملاء الطويلة سدولا ، « سنة الله التى قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا » فليطر طائر الوسواس المرفرف مطيراً ، كان ذلك فى الكتاب مسطورا ، ولم نستطع عن مورده صدورا ، وكان أمر الله قدراً مقدورا » .

ويعود أبوعبدالله بعد هذا الدفاع المستفيض المؤثر ، إلى الإشادة بخلال سلاطين فاس ومآثرهم ، ويقرر أنه يضع نفسه تحت حماية السلطان ورعايته «منتظماً

فى سلك أوليائه ، متشرفاً بخدمة عليائه » ، ليقضى بقية عمره فى كنفه مصوناً من المخاطر والضيم .

* * *

تلك خلاصة الدفاع الشهير الذى تركه آخر ملوك الأندلس للخلف من بعده. وهو دفاع حار مؤثر يذكرنا بتلك الإعتذارات الشهيرة (أبولوجيا) ، التى لجأ إليها الأقدمون فى ظروف مختلفة ، لتبرير بعض المواقف والآراء . وفيه يقف أبو عبدالله موقف المذنب البرئ معاً ، فهو لا يتنصل من جميع الأخطاء ، ولكنه يتنصل من تبعة ماحدث ، ويصور نفسه قبل كل شئ ضحية القدر ، ويدفع عن نفسه بالأخص تهمة التفريط والخيانة والزيغ . فالى أى حد تتفق هذه الصورة مع الحقيقة ، ومع منطق الحوادث والظروف التى وقعت فيها المأساة ؟ لقد تبوأ أبو عبدالله عرش غرناطة لأول مرة وهو فتى فى الخامسة والعشرين ، ثم عاد إلى تبوئه بعد ذلك بعدة أعوام ، وكان جلوسه فى كل مرة نتيجة حرب أهلية مخربة طاحنة . وقد نشأ هذا الأمير الضعيف فى بلاط منحل ، يضطرم بصنوف الدس والخصومة ، ولم تهيئه تربيته وصفاته للاضطلاع بمهام الملك ، ولا سيما فى مثل تلك الظروف الدقيقة ، التى كانت تجوزها مملكة محتضرة . أجل كانت الأندلس تسير إلى قدرها المحتوم قبل المأساة ببعيد ، ولم يك ثمة شك فى مصير غرناطة ، بعد أن سقطت جميع القواعد الأندلسية الأخرى فى يد العدو القوى الظافر ؛ ولكن ليس من شك أيضاً فى أن الأواخر من ملوك غرناطة ، يحملون كثيراً من التبعة فى التعجيل بوقوع المأساة . فنحن نراهم يجنحون إلى الدعة والخمول ، ويتركون شئون الدفاع عن المملكة ، ويجنحون إلى حروب أهلية يمزق فيها بعضهم بعضاً ، والعدو من ورائهم متربص ومتوثب يرقب الفرص. وقد كان هذا شأن مملكة غرناطة وشأن بنى الأحمر ولاسيما منذ أوائل القرن التاسع الهجرى أو أوائل القرن الرابع عشر الميلادى ، ومنذ عهد الأمير على أبى الحسن ، تبلغ الحرب الأهلية ذروتها الخطرة ، ويغدو مصير المملكة الإسلامية رهين رحمة القدر ، وقد شاء القدر أن يكون السلطان أبو الحسن ، وأخوه الأمير محمد بن سعد المعروف بالزغل ، وولده أبو عبدالله محمد أبطال المأساة الأخيرة ، حملتهم نفس الأطماع والأهواء الخطرة ، فانحدروا إلى معترك الحرب الأهلية ، وشغلتهم الحرب الأهلية طول الوقت

عن أن يقدروا حقائق الموقف ، وأن يستشعروا الخطر الداهم ، وأن يستجمعوا قواهم المشتركة لمواجهة العدو المشترك ؛ وانحدر أبو عبدالله إلى أخطر مافى هذه المعركة المميتة من وسائل الإغراء والتفوق . فجنح إلى مخالفة العدو الخالد . ولم يحجم عن أن يستعدى ملك النصارى على أبيه وعمه ، كى ينتزع الملك لنفسه ؛ فلما ظفر بعرش غرناطة بمؤازرة ملك قشتالة لم يكن سوى صنيعته وأسير وحيه . وكان عمه الزغل قد بسط سلطانه على الأنحاء الشرقية والجنوبية ، فلم يحجم عن مهاجمته نفس الوقت الذى هاجمه فيه ملك النصارى لينتزع منه ماتحت يده ، وكان الزغل فى الواقع بطل المعركة الأخيرة . وقد أبدى فى مقاومة العدو بسالة رائعة خلدتها سير العصر ؛ ولم يشعر أبو عبدالله بفداحة خطئه إلا حينما تحول إليه حليفه الغادر ملك قشتالة بجيشه الضخم ، ليحاصر غرناطة ويضربها الضربة الأخيرة ؛ وكانت قوى غرناطة ومواردها قد بددت فى حروب أهلية عقيمة . فلم يغن دفاعها شيئاً أمام القوة القاهرة والقدر المحتوم ، فكانت النكبة ، وكانت الخاتمة المؤسية .

أليس لنا بعد ذلك أن نحكم على آخر ملوك الأندلس ؟ إن أبا عبدالله يحمل أمام الله والتاريخ تبعة لاريب فيها . بيد أنه من الحق أيضاً أن نقول إنها ليست تبعة الخيانة أو الجريمة العمد ، بل هى تبعة « التفريط » والخطأ وعدم التبصر فى العواقب .

* * *

استقر أبو عبدالله بعد جوازه فى فاس فى ظل بنى وَطّاس ، وشيد بها قصوراً على طراز الأندلس رآها وتجول فيها المقرى مؤرخ الأندلس بعد ذلك بنحو قرن وثلث (١٠٣٧هـ — ١٦٢٨م) (١) . ويروى أنه لما نزل أبو عبدالله وصحبه إلى مدينة فاس ، أصابت الناس بها شدة عظيمة من الجوع والغلاء والوباء ، حتى غادرها كثير من أهلها ورجع بعض الأندلسيين إلى بلادهم ، وتقاعس كثير منهم عن الجواز إلى المغرب خوف الشدة والفاقة (٢) . وعاش الملك المخلوع فى منفاه طويلا يجرع كأسه المرة حتى الثمالة ، ويتقلب فى غمر الحسرات والذكريات المفجعة ، ويشهد خلال هذه الفترة المؤلمة ، جهود السياسة الإسبانية فى سحق الإسلام بالأندلس ، وسحق مدنيته وكل

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ .
(٢) أزهار الرياض ج ١ ص ٦٨ .

رسومه وآثاره ، ويشهد يد الفناء والمحو ، تعمل لاستئصال هذا الشعب الأندلسى النبيل التالد ، من الأرض التى لبث يرعاها ثمانية قرون ، وينثر فى أرجائها فيض عبقريته وروائع حضارته . وتوفى أبو عبدالله بعد المأساة بنحو أربعين عاماً فى سنة ٩٤٠هـ (١٥٣٤م) ودفن بفاس ، وترك ولدين هما أحمد ويوسف ، واستمر عقبه متصلا معروفاً بفاس مدى أحقاب ، ولكنهم انحدروا قبل بعيد إلى هاوية البؤس والفاقة . ويذكر لنا المقرى أنه رآهم سنة ١٠٣٧ هـ (١٦٢٨م) معدمين يعيشون من أموال الصدقات [١] . وفى بعض الروايات الإسبانية أن أبا عبد الله توفى قتيلا فى موقعة نشبت بين السلطان أحمد الوطاسى وبنى سعد الخوارج عليه فى وادى أبى عقبة وقاتل فيها أبو عبدالله إلى جانب أصدقائه بنى وَطّاس وذلك فى سنة ٩٤٣ هـ (١٥٣٦م)[٢]. بيد أنها رواية ظاهرة الضعف لأن أبا عبدالله يكون فى هذا الوقت قد جاوز السبعين ، ومن الصعب أن نتصور أنه يخوض مثل هذه المعارك الطاحنة بعد أن هدمه الإعياء والهرم . هذا إلى أن الرواية الإسلامية فى هذا الموطن أدعى إلى الترجيح والثقة .

ولم نعثر على تاريخ وفاة الأميرة الباسلة عائشة الحرة والدة أبى عبد الله ، ولابد أنها توفيت قبله بمدة طويلة .

ويعرف أبو عبدالله آخر ملوك الأندلس فى الرواية الإسبانية بمحمد الحادى عشر . وبالملك الصغير El Rey chico تمييزا له من عمه أبى عبدالله الزغل ، ويلقب أيضاً بالزغيبى ومعناها المنكود أو عاثر الجد ، تنويها بما أصاب الإسلام على يديه من الخطوب والمحن [٣] .

---

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٦١٧ . وهنا يذكر المقرى أن أبا عبد الله توفى فى سنة ٩٤٠ هـ ويتابعه السلاوى فى الاستقصاء (ج ٢ ص ١٦٨) ولكنه يعود فى أزهار الرياض (ج ١ ص ٦٨) فيذكر أنه توفى فى سنة ٩٢٤ هـ ، وهى رواية محرفة فيما يرجح . وفى أقوال التواريخ الغربية مايرجح الرواية الأولى .

(٢) راجع Irving : Conquest of Granada فى الملحق الخاص بأبى عبد الله ؛ وكذلك الاستقصاء للسلاوى ج ٢ ص ١٦٨ .

(٣) الزغيبى مصغر « زغبى » ، ومعناها فى لغة أهل غرناطة : المنكود أو التعيس . ومعناها وفقا لمارمول « التعس الصغير » « الرجل المسكين » Le petit Malheureux : Le pauvre Homme (راجع دوزى . Supp. aux Dict. arabes p. 594) .

— ٣ —

ولابد لنا قبل أن نختتم الكلام على تلك الصفحة المؤسية من تاريخ الأندلس ، أن نتحدث عن ذلك الصرح الخالد ، الذى ما زال رمزاً حياً لتلك المأساة المفجعة التى اختتمت بين جدرانه الصامتة ، واقترنت باسمه إلى الأبد ، ونعنى بذلك حمراء غرناطة . ذلك الصرح الذى يمثل فى تاريخ الأندلس عصراً بأسره ، وحضارة بأسرها ، والذى مايزال يثير بجلاله وروعته كثيراً من المواقف والذكريات الخالدة .

لبثت حمراء غرناطة زهاء قرنين عنواناً لمجد الإسلام ودولته . وملاذاً ساطعاً للحضارة الأندلسية ، التى كانت أنوارها الباهرة تشع فى أرجاء أوربا . خلال تلك العصور الوسطى ؛ فلما أشرفت الدولة الإسلامية على الفناء ، غدت حمراء غرناطة قبرها الأخير ، وطوت بين جدرانها صفحتها المجيدة . ومازالت الحمراء وساحاتها الشاسعة ، وأبهاؤها الفخمة ، وأبراجها الشامخة ، منذ أربعة قرون عنواناً للمجد الذاهب ، وشاهداً صامتاً لجليل الحوادث والذكريات .

وتاريخ الحمراء هو تاريخ الصروح والهياكل العظيمة التى تتبوأ مقامها الراسخ فى تاريخ الدول التى شادتها ، والعصور التى شهدتها ، فهو جزء لاينفصل من تاريخ الأندلس ، كما أن قصر الفاتيكان جزء لاينفصل من تاريخ البابويه . وما تاريخ الحمراء وسير بناتها وسادتها ، إلا تاريخ مملكة غرناطة ، وما الحمراء ذاتها ، وما تعرضه من روعة فى الصنع والإنشاء ، وما تحوى من بدائع الفن والزخرف ، إلا صفحة جامعة من تاريخ الحضارة الأندلسية ، فالسائح المتأمل فى جنبات هذا الصرح الخالد ، لايسعه إلا أن يرتد بذهنه إلى الماضى البعيد ، فيذكر قصة أمة مجيدة كانت سيدة هذه الأرض والمهاد ، وحضارة زاهرة كانت تفيض على هذه الأرض والمهاد ، عظمة ونعماء ونوراً .

وللحمراء تاريخ قديم يرجع إلى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) أيام الدولة الإسلامية الكبرى . وقد كانت يومئذ قلعة متواضعة . وتتحدث الرواية الأندلسية المعاصرة عن قلعة بنيت على ضفة نهر حدارة اليسرى ، تسمى قلعة الحمراء ، وتذكرها بالأخص أيام الحروب الأهلية التى اضطرمت فى منطقة غرناطة ، بين المولدين والبطون العربية ؛ ومما قاله شاعر من شعراء ذلك العصر فى الإشارة إلى قلعة الحمراء :

منازلهم مقهم قفارية قسع تجارى السفا فيها الرياح الزعازع
وفى القلعة الحمراء تدبير زيغهم وفيها عليهم تستدير المواقع

ولما تولى باديس بن حبوس زعيم البربر حكم غرناطة، واتخذها قاعدة لملكه فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، أنشأ سوراً ضخماً حول التل الذى تقع عليه القلعة المذكورة ، وأنشأ فى داخله قصبة (قلعة) اتخذها مقاماً له ، ومركزاً لحكومته ، وسميت بالقلعة الحمراء ، تجديداً لاسمها القديم . ثم زيد فى القلعة ، واتسع نطاقها بمضى الزمن ، وغدت حصن غرناطة وقصبتها أو بعبارة أخرى معقلها الرئيسى . ولما غلب محمد بن الأحمر على غرناطة فى سنة ٦٣٥هـ (١٢٣٨م) أنشأ فوق هذا الموقع القديم ، وداخل الأسوار ، حصنه أو قصره الذى أطلق عليه اسم الحمراء ، وجلب له الماء من نهر حدارة ، واتخذه قاعدة للملك ، وأنشأ فيه عدة أبراج منيعة منها البرج الكبير المسمى برج المراقبة Torre de la Vela ، والبرج المقابل له ، وأنشأ له سوراً ضخماً يمتد حتى مستوى الهضبة . والظاهر أنه بنى مسكنه فى الجنوب الغربى من الحصن ، أعنى فى نفس المكان الذى يقوم عليه قصر الإمبراطور شرلكان . ومن المرجح أن اسم الحمراء يرجع إلى قيام قصر ابن الأحمر فوق أطلال قلعة الحمراء القديمة ، وليس إلى تسميته باسمه . وقد ذكر البعض أن إطلاق اسم الحمراء على صرح غرناطة الملكى يرجع إلى احمرار أبراجه الشاهقة ، أو إلى لون الآجر الأحمر الذى بنيت به الأسوار الخارجية . وقيل أيضاً إن التسمية ترجع إلى لون المشاعل الحمراء التى كان يجرى البناء ليلا على ضوئها . ولكنا نؤثر الأخذ بالتعليل الأول فهو أقوى وأرجح . وما زالت ثمة بجوار قصر الحمراء أطلال القلعة القديمة تحمل إلى اليوم اسم « قلعة الأبراج الحمراء » Castillo des Torres bernejas وهو ما يؤيد صحة هذا التعليل لاسم « الحمراء » (١) .

واستمر فى البناء من بعد محمد بن الأحمر . ولده محمد الفقيه الملقب بالغالب بالله ، فأنشأ الحصن والقصر الملكى فى أواخر القرن السابع الهجرى ، وأنشأ حفيده محمد إلى جانب القصر فى الجنوب الشرقى منه ، مسجداً بديعاً فى المكان الذى تحتله اليوم

---

(١) راجع مقدمة المستشرق جانجوس لاطلس « الحمراء » Alhambra الذى تقدمت الاشارة اليه، ص ٥ الهامش وص ٧ و ٨ . وراجع أيضا المستشرق سيبولد فى Ency. de l'Islam تحت كلة Alhambra . وراجع دائرة المعارف البريطانية تحت نفس الكلمة .

كنيسة سانت ماري . التي بنيت في القرن السابع عشر . ولم يبق اليوم من آثار مسجد الحمراء سوى مصباح برونزي فخم محفوظ بمتحف مدريد .

وقد بنيت معظم أجنحة الحمراء الملكية في القرن الرابع عشر في عهد السلطان أبي الوليد إسماعيل وولده يوسف أبي الحجاج ، وابنه محمد الغني بالله . ولسنا نعرف شيئاً محققاً عن المهندسين أو الفنانين الذين قاموا على إنشائها . وتدين الحمراء بفخامتها الرائعة إلى السلطان يوسف أبي الحجاج . الملك الشاعر والفنان الموهوب . فقد زاد في القصر زيادة كبيرة ، وأسبغ عليه روائع الفن والزخارف الداخلية الفخمة ، وأنشأ البرج الشاهق الذي يقع فوق مدخل القصر الرئيسي . وهو المسمى « باب العدل » والذي مازال يحمل تاريخ إنشائه (٧٤٩هـ — ١٣٤٨م) وكان اسم الحمراء يطلق على هذه المجموعة الملكية الفخمة كلها .

وتقع أبنية الحمراء فوق هضبة يبلغ طولها ٧٣٦ مترا وعرضها نحو مائتي متر ، وتشغل نحو خمسة وثلاثين فداناً . ويحيط بالحمراء سور ضخم يتخلله ثلاثة عشر برجاً ، ويجري نهر حدارة في الوادي الواقع في شمالها . وموقع الحمراء ذو جمال طبيعي نادر ، فهي تشرف من الشمال والغرب إشرافاً شاملا على المدينة وعلى فحص غرناطة ، وتشرف من الشرق والجنوب على آكام جبال سيير انفادا (جبل شلير) . ولم يبق اليوم من قلعة الحمراء التي كانت تشغل منحدر الهضبة في الشمال الغربي ، سوى أسوارها الخارجية وأبراجها . وأما القصر الملكي فقد بقيت معظم أجزائه ؛ ويعتبر قصر الحمراء من أبدع الآثار الإسلامية التي أبقت عليها حوادث الزمن ، وليس له مثيل في الحسن والروعة من حيث أعمدته الرخامية الرائعة ، وحناياه وسقوفه ذات الزخرف البديع ؛ ويغمره الضوء والهواء بوفرة ، ويبدو في مجموعه في منتهى الظرف والإناقة . ويلحق بالقصر بستان عظيم ، وكان أيام المسلمين منزرعاً بأشجار البرتقال والورود والريحان ، ويغص أيام الربيع والصيف بالبلابل . ويتخلله خرير الماء المتدفق من عدد من النوافير التي يجري إليها الماء من نهر حداره ، ويصل الزائر إلى البستان من باب غرناطة المسمى « باب الرمان » (Puerta de los Granadas) . وأما القصر الإسلامي Palacio Arabe أو Casa Real فالوصول إليه من باب صغير ، يصل رواق بينه وبين فناء البركة أو فناء الريحان .

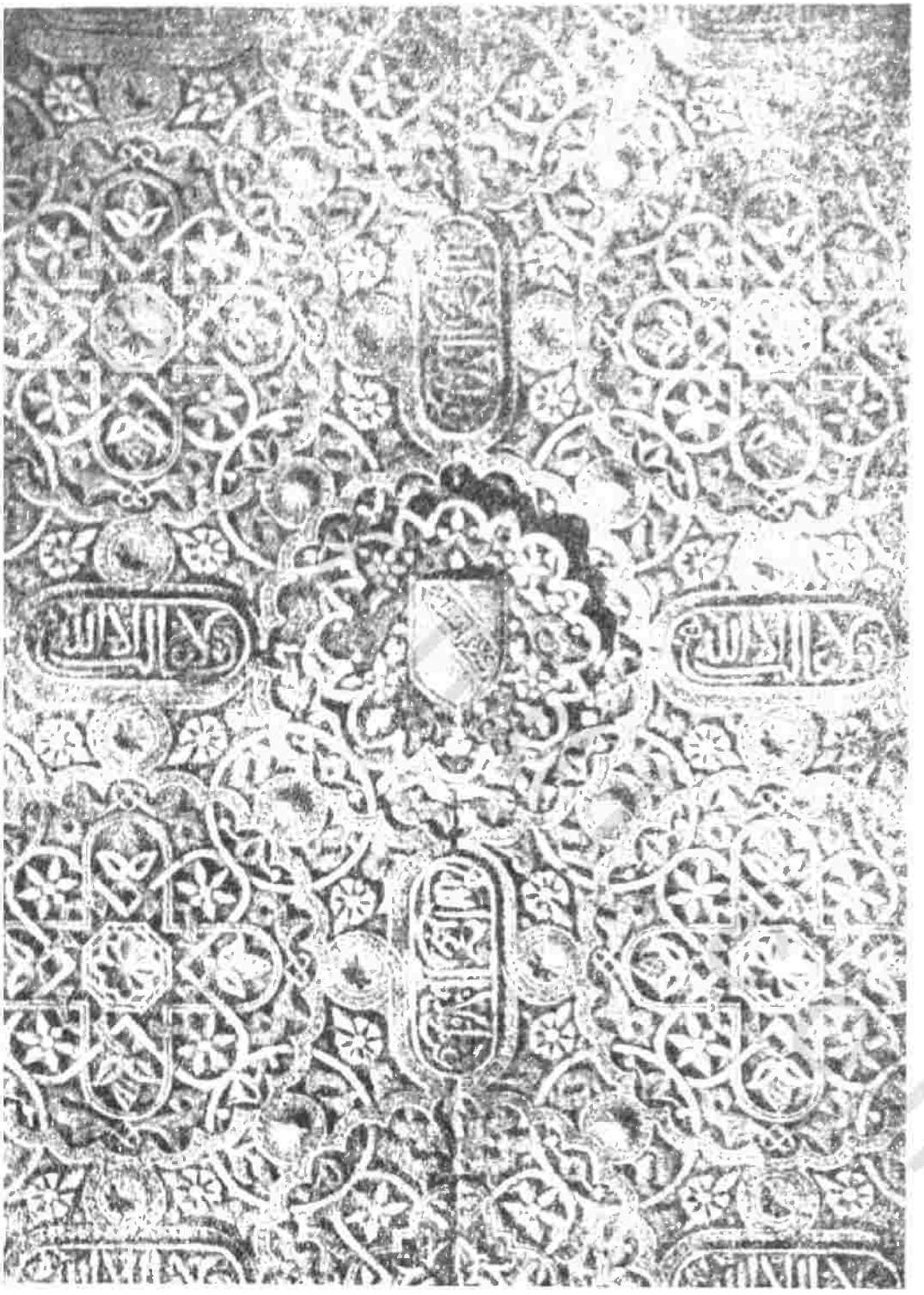

من زخارف بهو المدخل الرئيسى

(قصر الحمراء

ويتكون قصر الحمراء، وهو مقام ملوك بنى نصر السابقين ، من ثلاثة أبنية رئيسية تهدم أحدها وأضحى اليوم أطلالا دارسة .

وأما الثانى فيتكون من قصر قمارش أو بهو قمارش ، وله واجهة فخمة فيها بابان كبيران ؛ وقد كان هذا البناء ، هو المقام الرسمى للملوك غرناطة السابقين ، وسمى بقصر قمارش نسبة إلى بهو العرش الذى يقع تحت برج قمارش . ويسمى هذا البهو أيضاً بهو السفراء Sala de los Ambajadores ، وهو عبارة عن مربع طول ضلعه أحد عشر مترا ونصف ، وعليه قبة خشبية فخمة ارتفاعها ثلاثة وعشرون مترا ، حفرت زخارفها على شكل النجوم ، وزخرفت الجدران بنفس الطراز ؛ وبهو السفراء هو أعظم أبهاء الحمراء ، وكان به مجلس العرش . وقد بنى معظم أجنحة هذا البناء محمد الغنى بالله (٧٦٣ — ٧٩٣هـ) . ولهذا القصر فناء كبير على الطراز الأندلسى القديم ، وفى وسطه حوض به نافورتان عند طرفه ، وأخرى فى وسطه ، وتطل عليه أبواب ونوافذ لجناحين من أجنحة القصر ؛ ويجاور بهو قمارش حمامات تمتاز بجدرانها المصقولة ، وسقوفها المقامة فوق أعمدة من الطراز القديم ، وإلى جوار هذه الحمامات يوجد فناء آخر وحديقة .

ويتكون البناء الثالث من قصر ملكى آخر أطلق عليه حى السباع ، وذلك بسبب الفناء الذى تقع فيه نافورة السباع المشهورة . وهذا القصر هو أحدث أبنية الحمراء ، وفيه نقوش تشيد بذكر السلطان الغنى بالله . وفناء السباع أو كورة السباع Patio de los Leones عبارة عن فناء مستطيل طوله نحو ٣٥ متراً وعرضه عشرون ، تحيط به مشرفية يحملها مائة وأربعة وعشرون عاموداً من الرخام الأبيض ، وفى وسطه نافورة السباع المشهورة ، وهى عبارة عن حوض من المرمر ، يحمله اثنتا عشر أسداً صنعت من الرخام الأبيض ، ومع أنها ليست بارعة المطابقة ، فانها تبدى مخائل القوة والشجاعة . وتزعم بعض الروايات أن كورة السباع كانت مسرحاً دمويا لمصرع بعض أبناء السلطان أبى الحسن .

ويقع فى جنوب كورة السباع ، بهو بنى سراج Sala de los Abencerrajes وهو اسم الأسرة الغرناطية الشهيرة التى لعبت دوراً عظيما فى حوادث غرناطة الأخيرة . وترجع هذه التسمية إلى قصة محزنة تروى عن خاتمة هذه الأسرة سوف نعود إليها فيما بعد . وهذا البهو عبارة عن مربع عليه قبة عالية ، تتخللها من الدائرة السفلى عدة نوافذ ، وقد زين سقفها بزخارف بديعة زرقاء وبنية ومذهبة .

فنـــاء البركة وبرج قمارش
(قصر الحمراء)

ويقع فى الناحية الأخرى ، الناحية البحرية (من كورة السباع) بهو الأختين Sala de las dos Hermanes ، وفى وسطه نافورة أخرى .

ويحتوى قصر الحمراء فوق ماتقدم ، على مجلس القضاة Sala de la Justicia ومتزين الملكة ، وهو بديع الزخرفة ، وعلى عدة حمامات وغرف نوم ، وعلى مقبرة تظللها الحنايا ، وهى مقبرة ملوك بنى نصر .

ويلحق بقصر الحمراء ، قصر جنة العريف ، وهو بناء مستقل يقع فى الشمال الشرقى من القصر ، الكبير وقد بنى فى أواخر القرن الثالث عشر ، وكان مصيفاً للملوك غرناطة .

ولم ينج هذا الأثر الإسلامى العظيم ، عنوان الحضارة الأندلسية الباهرة ، من يد العدوان والتشويه المنظم . فقد كان مثل بناته المغلوبين ضحية للسياسة الإسبانية الغاشمة ، وقد عمل الإسبان منذ سقوط غرناطة على محو جمال الحمراء الرائع بأعمال وندالية متتالية ، فمسخوا الزخارف والنقوش أو محوها ، ونقلوا الأثاث والرياش أو أتلفوه ؛ وبنى الإمبراطور شارلكان فى سنة ١٥٢٦ إلى جانب الحمراء فى الجنوب الغربى منها قصراً جديداً ، وخرب معظم القصر الشتوى القديم ليفسح مكاناً للقصر الجديد . وعمل فيليب الخامس (١٧٠٠ — ٤٦) على مسخ طراز الغرف العربى ، واستبداله بالطراز الإيطالى ؛ وأتم تشويه القصر باقامة حواجز سدت المنافذ والطرق بين مختلف الأجنحة . وعلى الجملة فقد تركت الحكومات الإسبانية المتعاقبة هذا الأثر الإسلامى البديع فى زوايا الإهمال ، وأسلمته إلى يد العفاء والتخريب ، ولم تعن بإصلاحه وترميمه فى العصور الأولى إلا مرة واحدة ، فى أواسط القرن السادس عشر . وفى سنة ١٥٩٠ وقع بالحمراء حريق تسبب عن انفجار مصنع بارود مجاور ، فأصابها باضرار كبيرة . ومنذ القرن السابع عشر تغلب مظاهر الخراب على الحمراء ، ويسودها النسيان والوحشة . وفى سنة ١٨٠٢ نسف الفرنسيون بعض أبراجها ولم ينج القصر إلا بأعجوبة . وفى أواسط القرن التاسع عشر ، أفاقت الحكومة الإسبانية من سباتها الطويل ، وعنيت بإصلاح الحمراء ، واستمر الترميم والإصلاح فيها حتى أواخر هذا القرن .

هذا وما زالت الحمراء بالرغم من هذا الإهمال الطويل والوندالية المنظمة ،

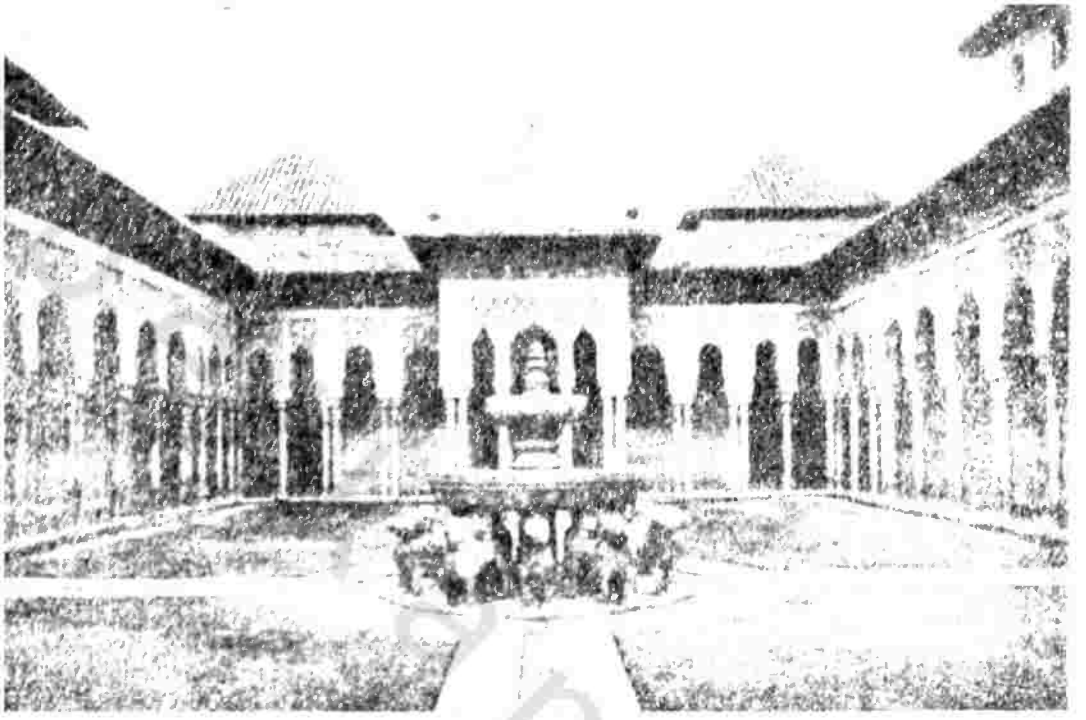

بهو الأسود أو كورة السباع (قصر الحمراء)

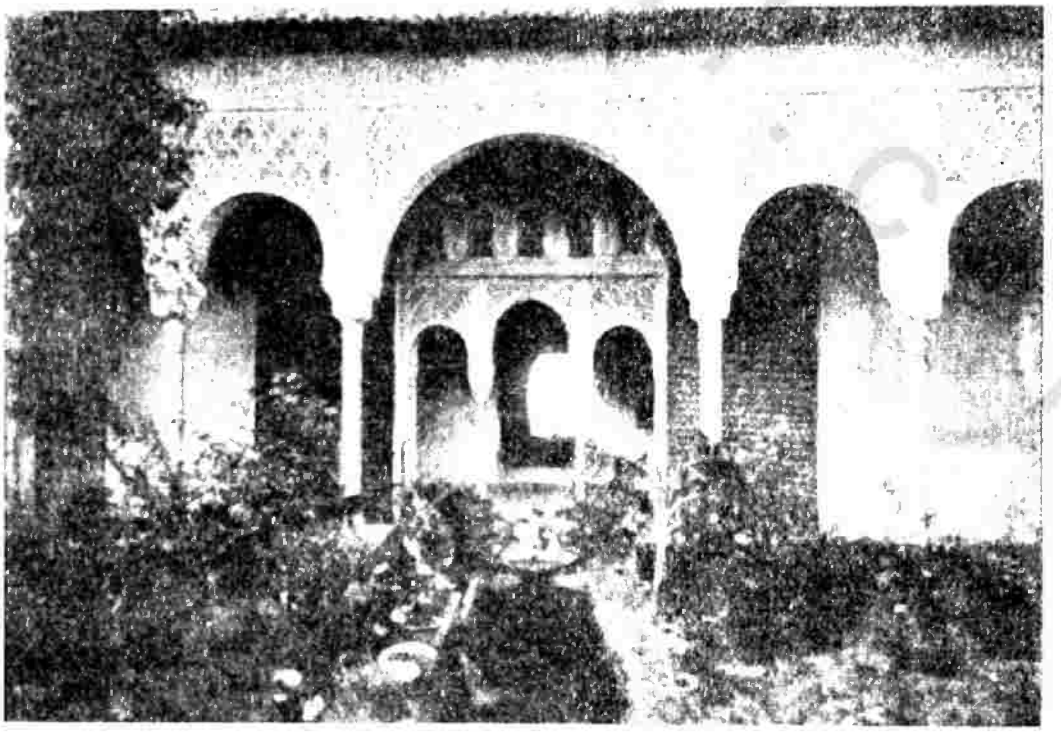

والإصلاح الغاشم ، تعتبر أكمل نموذج للفن الأندلسى فى تطوره الأوربى النهائى ، بعد تحريره من أثر الفن البيزنطى الذى يبدو فى جامع قرطبة ، ويبدو بشكل أوضح وأكثر إغراقاً فى قصر إشبيلية (الجيرالدا) (١) .

* * *

وقد لبثت الحمراء بأبراجها المنيعة ، وأجنحتها الملوكية البديعة زهاء قرنين مُقاماً فخماً للملوك غرناطة ، وحصناً أميناً يعتصمون به وقت الخطر والأزمات العامة . حتى شهدت فى النهاية ذهاب ملكهم ، كما شهدت من قبل عظمتهم وسلطانهم .

وإلى جانب الحوادث التاريخية التى كانت الحمراء مسرحها ، والتى فصلناها فى مواضعها ، تتبوأ القصة والأسطورة فى تاريخ الحمراء مكاناً كبيراً ، وتقدم للقصصى مادة شائقة مؤثرة . ويرجع معظم هذا القصص إلى الفترة الأخيرة من حياة مملكة غرناطة ، وإلى حوادث مصرعها النهائى ، وقد كانت الحمراء كما رأينا مسرح كثير من حوادث المأساة ، وكانت بالأخص مسرح فصلها الختامى .

أجل إن للحمراء إلى جانب تاريخها الحافل ، تراثها من القصص والأساطير ، وهو تراث يمتزج أحياناً بالتاريخ الحق ، ويجنح أحياناً إلى الأسطورة الشائقة . بيد أنه يثير الشجن دائماً ، وينفث الإعجاب والسحر . ذلك أنه مستمد من الحوادث والذكريات العظيمة ، التى ترتبط بتاريخ غرناطة ، ومن الروايات المؤثرة التى ذاعت عن مصرعها ، وعن بسالة فروسيتها ، حين المعركة الحاسمة ، وعن خلال مجتمعها ، ومخاوفه وهواجسه وآماله . وإذا كان المؤرخ لايجد فى هذا التراث دائماً ، مادة وثيقة يستطيع الوقوف بها ، فانه يجد على الأقل صوراً مؤثرة مما تسبغه الروايات المعاصرة ، على تلك الحوادث العظيمة ، من ألوان الروع والشجن والأسى .

وفى هذه الحوادث المشجية يغلب التاريخ على الرواية والقصة . ولكن توجد إلى جانب ذلك طائفة من الأساطير الشائقة ، التى أحاطت بها الرواية الإسبانية قصة الحمراء ، وقصة أبهائها وأبراجها . وأول ما يروى فى ذلك أن منشىء قصر الحمراء السلطان محمد الغالب بالله (٦٧١ — ٧٠١ هـ) كان ساحراً ، وأنه استعان بالسحر

---

(١) دائرة المعارف البريطانية فى مقال Alhambra . هذا وقد رجعنا فى كتابة هذا الفصل أيضا إلى كتاب Alhambra المنشور بعناية السينور M. Gomez - Moreno فى سلسلة El Arte en Espana

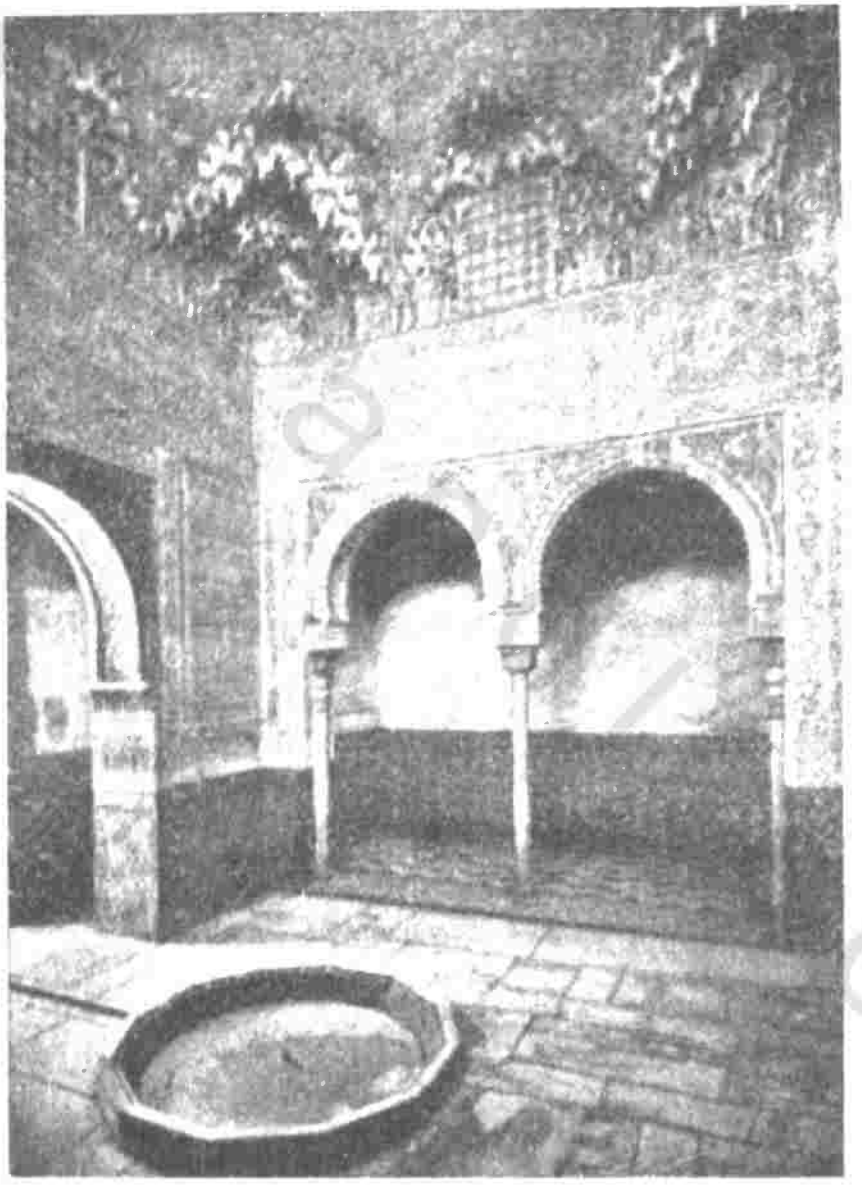

بهـــو بنى سراج

(قصر الحمراء)

والشياطين فى إنشاء الحصن والقصر ، ومن ثم استطاعت الجدران والأبراج المنيعة أن تغالب فعل الحوادث والعواصف والزلازل حتى يومنا ، دون أن تتصدع أو تنهار . والسر فى ذلك يرجع إلى الطلاسم والتعاويذ السحرية التى تحمى البناء من كل شر . وتقول الأسطورة إن الحمراء لن تنهدم أو تسقط إلا حين يميل اللسان المثبت فى أسفل البرج الخارجى ، ويصل إلى موضع القفل ، فعندئذ تنهار الحمراء دفعة واحدة ، وتنكشف جميع الكنوز التى أودعها المسلمون فى أعماقها .

وعلى ذكر هذه الكنوز تقول الأسطورة إن المسلمين عندما سقطت غرناطة فى أيدى النصارى ، كانوا يعتقدون أن سقوطها حادث مؤقت ، وأن دولة المسلمين فى الأندلس لن تلبث أن تعود قوية عزيزة ، وأن بعدهم عن أوطانهم لن يطول ، ولذلك عمدوا إلى إخفاء ذخائرهم وحليهم وأموالهم فى أعماق الحمراء ، فى جوانب متعددة منها ، وأنهم لجأوا فى حفظها وحمايتها إلى السحر ، فرصدوا لحفظها الطلاسم والأسماء . وقد يبدو حراسها أحياناً فى صور مردة أو وحوش ، أو فرسان مسلمين مدججين بالسلاح ، يسهرون عليها أبد الدهر ، جامدين لا يغمض لهم طرف . وليس فى الحمراء برج أو بهو أو قاعة إلا اقترن ذكرها بقصة هذه الكنوز الخفية ، وكانت الأسطورة تضطرم من عصر إلى آخر ، ولا سيما فى جنوبى اسبانيا كلما كشفت المباحث الأثرية فى أنحاء الحمراء أو حولها ، عن بعض النقود والتحف الإسلامية .

وتقدم إلينا الرواية بعض الأساطير المروعة عن « بهو الأسود » والبهو الذى يقابله وهو المسمى بهو بنى سراج . فأما بهو الأسود فتزعم الرواية أنه كان مسرحاً دموياً لمصرع بعض أبناء السلطان أبى الحسن كما قدمنا . وأما بهو بنى سراج فتقول الرواية إنه كان مسرحاً لمصرع بنى سراج أعرق الأسر الغرناطية وأوفرها جاهاً وفروسة ، وكانت فى أواخر عهد السلطان أبى الحسن قد انتظمت إلى جانب خصومه ، وأمعنت فى مناوئته ، فقرر إهلاكهم . وقيل إن عميدهم محمد بن سراج ، وهو من أكابر الفرسان والسادة ، هام بحب أميرة من البيت المالك ، فوجد عليه السلطان وقرر سحق الأسرة كلها . ودبر مع ولده أبى عبدالله كميناً لإهلاكهم ، فدعا أكابرهم ذات مساء إلى حفل أقامه ، وأدخلوا واحداً بعد واحد بترتيب معين ، من باب البهو المذكور ، وكلما دخل أحدهم بادره القتلة ونحروه على حافة النافورة الرخامية ، حتى أعدموا

جميعاً ، وفقدت الأسرة كل أنجادها . وسمى المكان من ذلك الحين « بهو بنى سراج ». وما زالت بقع سوداء فى أرض البهو الذى وقعت فيه المأساة تقول الرواية إنها بقع دم القتلى ، وانها لن تمحى قط ، وتزيد الأسطورة على ذلك أنه مازالت تسمع فى ذلك البهو فى بعض الليالى أنات خافتة ، وقعقعة سلاح ، وأنه حدث أكثر من مرة أن رأى حراس الحمراء فى جوف الليل ، بعض الجند المسلمين ، وقد لمعت أثوابهم الزاهية وأسلحتهم البراقة ، يقطعون البهو جيئة وذهابا (١) .

وهناك طائفة كبيرة من الأساطير الغرامية ، تروى عن الملوك والسادة الذين سكنوا الحمراء ، وعن أبهائها الفخمة وأبراجها القاتمة ، ويقال إن كثيراً من الأميرات والغيد الحسان الذين استحقوا اللعنة الملكية زجوا إلى أقبيتها أو أبراجها السحيقة وأعدموا فى ظلماتها . ومن ذلك ما تزعمه الأسطورة من أن سلطاناً مستبداً من سلاطين غرناطة سجن بناته الثلاث فى أحد أبراج الحمراء ، ولم يك يسمح لهن إلا بالتريض ليلا فى بعض التلال المجاورة بحيث لا يراهن إنسان قط ، وأن أولئك الأميرات الثلاث مازلن يظهرن فى بعض الليالى المقمرة فى هاتيك التلال ، يمتطين جيادهن الفخمة ، وتسطع حليهن النفيسة تحت أشعة القمر ، فاذا حاول إنسان أن يخاطبهن أو يزعجهن ، اختفين فى الحال تحت جنح الظلام .

وقد ذاعت هذه الأساطير عن الحمراء وعن ملوكها ، ودونت عقب سقوط غرناطة ، فى بعض التواريخ والقصص المغرق . ومن ذلك كتاب ظهر فى أواخر القرن السادس عشر عنوانه « حروب غرناطة الأهلية » Guerras civiles de Granada وزعم مؤلفه ، وهو اسبانى من أهل مرسية يدعى جينز بيرث دى هيتا أنه نقله عن

---

(١) يلاحظ أن الرواية الاسلامية لا تحدثنا عن هذه المأساة بشىء . ولكن الرواية والأغانى الإسبانية تكثر الحديث عنها . وقد كانت حوادث هذه المأساة المزعومة وما اقترن بها من الأساطير مستقى خصبا لكتاب القصص . وقد وضع الكاتب الفرنسى شاتوبريان عن بنى سراج قصة عنوانها مغامرات آخر بنى سراج (Aventures du dernier Albencérrages) يحدثنا فيها عن فتى اندلسى هو آخر سليل لبنى سراج ، وكانت الأسرة قد نزحت إلى تونس عقب سقوط غرناطة ، وعاشت هنالك فى فقر وضعة ، فاعتزم الفتى أن يحج إلى غرناطة موطن آبائه القديم ، وهنالك هام حبا بفتاة اسبانية رائعة الحسن ، وهامت بحبه ، ولكن اختلاف الدين حال دون زواجهما ، فارتد الفتى المسلم إلى الصحراء وانقطع أثره ، وعاشت حبيبته فى عزلة محتفظة بحبه وذكراه .

مؤلف لكاتب أندلسى يدعى ابن أمين ، وهو مزيج من بعض الوقائع التاريخية المحرفة ، وكثير من القصص الخرافية ؛ ويدور معظمه على حوادث غرناطة الأخيرة ومعاركها الأهلية ، ومنافسات بنى سراج وبنى الثغرى وغيرهم من أنجاد غرناطة . وقد ذاع المؤلف فى اسبانيا ولاسيما فى ريف الأندلس ، وترجم إلى لغات عديدة . بيد أنه يبدو من سياقه أنه لايمكن أن يكون ترجمة لرواية عربية ، وكل ماهنالك أنه مزيج من بعض الأساطير النصرانية والشعبية ، التى ذاعت فى ذلك العصر عن حوادث غرناطة ، وأذكاها خيال الأحبار والفرسان ، وأذكتها بالأخص عوامل دينية وسياسية خاصة .

هـذا بعض ما يروى من قصص الحمراء وأساطيرها . وإذا كان المؤرخ لايستطيع أن يقف بهذا التراث المغرق من القصص والأساطير ، فانه يستطيع على الأقل أن يستخرج منه مغزى بليغاً ، وهو مغزى يتم فى كثير من الأحيان عما كان للأندلس المسلمة فى اسبانيا وفى الغرب ، من عظيم الهيبة والشأن ، وما كان لذكريات غرناطة وحمرائها من بالغ الروع والسحر والإجلال (١) .

* * *

ورحم الله شوقى إذ يقول فى سينيته الأندلسية الشهيرة فى رثاء الحمراء :

لاترى غير وافدين على التـا ريخ ساعين فى خشوع ونكس
نقلوا الطرف فى نضارة آس من نقوش وفى عصارة ورس
وقبـــاب من لازورد وتـــبر كالربى الشم بين ظل وشمس
وخطوط تكفلت للمعـــانى ولألفـــاظها بأزين لبس
وترى مجلس السـباع خـــلاء مقفر القاع من ظباء وخُنس
لا « الثريا » ولا جوارى الثريا ينزلن فيـــه أقمار إنس
مرمر قامت الأســـود عليـــه كلة الظفر لينات المجس
تنثر المـــاء فى الحياض جمـــانا يتنزى على تراثب ملس
آخر العهـد بالجزيرة كانت بعد عرك من الزمان وضرس

---

(١) رجعنا فى ذلك عدا المصادر العربية ، إلى واشنطون إيرفنج فى كتابيه Conquest of Granada و Tales of the Alhambra . وكذلك برسكوت فى كتابه History of Ferdinand and Isabella

يا ديارا نزلت كالخلد ظـــلا وجنى دانيـــا وسلسال أنس
لا تحس العيون فوق رباها غير حور حُو المراشف لعس
كسيت أفرخي بظلك ريشـــا وربا في رباك واشتد غرسي
هم بنو مصر لا الجميل لديهم بمضـــاع ولا الصنيع بمنسي
من لســـان على ثنائك وقف وجنان على ولائك حبس
حسبهم هـــذه الطلول عظات من جديد على الدهور ودرس
وإذا فاتك التفات إلى المـــا ضي فقد غاب عنك وجه التأسي

obeikandl.com